

طرابلس الشام تاريخها وآثارها في العصر الاسلامي

للكاتب السيد عبد العزيز سالم

أتيحت لي فرصة زيارة مدينة طرابلس الشام ، في الوقت الذي كنت فيه معارفاً بجامعة بيروت العربية للعام الجامعي ١٩٦١ - ١٩٦٢ ، فبحثت عن تاريخ لهذه المدينة فلم أجده ، ثم زرت آثارها ، ولم يكن معي غير دليل صغير عن أهم معالمها ، وذهلت لكثرة الآثار الاسلامية التي تحتفظ بها المدينة ، ووجدت نفسي منساقاً الى الكتابة عن هذه الآثار ، فأعدت زيارتي لطرابلس مرة بعد مرة ، وأخيراً أقمت بالمدينة فترة من الزمن قمت خلالها بدراسة أهم آثارها الاسلامية . واتصلت في أثناء هذه الفترة بالعالم الكبير الأمير موريس شهاب ، مدير الآثار بـلبنان والأستاذ بالجامعة اللبنانية ، الذي أثنى هذه الفرصة لأقدم له جزيل شكرى على ارشاداته وتوجيهاته ومعاونته الصادقة ..

تقع مدينة طرابلس الشام على منتصف الساحل الشرقى لخوض البحر الأبيض المتوسط تقريباً ، وتبعد عن مدينة بيروت عاصمة لبنان بنحو تسعين كيلو متراً ، ويحشى طرابلس من الرياح الجنوبية الغربية السائدة عدة جزر صخرية صغيرة ، تتوزع أمام رأس الميناء . وقد ساعد هذا الموقع الرائع لمدينة طرابلس ، بالإضافة الى امكانياتها الاقتصادية المتوفرة ، على ازدهار الحياة الاقتصادية في المدينة ، وتقدمها تقدماً محسوساً ، بحيث أصبحت مدينة طرابلس لهذا السبب بحق العاصمة الثانية للجمهورية اللبنانية .

وتتألف مدينة طرابلس من الناحية العمرانية من قسمين أساسيين :
المدينة والميناء تفصل بينهما مساحات واسعة من الحدائق والبساتين .
أما المدينة فتتمدد على بعد ثلاثة كيلو مترات تقريباً شرق الميناء ، على ضفتي
نهر قاديشا المعروف بنهر أبي علي ، في الموضع الذي يصل فيه هذا النهر
إلى السهل بعد أن يجتاز المنطقة المرتفعة من سفح جبل لبنان . ويقوم
على الضفة اليسرى من هذا النهر نثر أو تل يشرف على مدينة طرابلس
الرابضة أدناه، ويرتفع على هذا التل قلعة أثرية من أيام الصليبيين والمماليك
تعرف اليوم بقلعة صنجيل نسبة إلى منشأ ريموند دي سان جيل ، كونه
دي تولوز ، الذي أقامها سنة ١١٠٣م أثناء حصاره لمدينة طرابلس القديمة
المطلية على البحر . وسماها قلعة الحجاج نسبة للتل الذي أطلق عليه في ذلك
العصر اسم تل الحجاج Mons Peregrinus (١) .

وأخذ العمران ينمو منذ ذلك التاريخ أدنى هذه القلعة مكوناً مركزاً
عمرانياً ، اختاره المنصور قلاوون لبناء مدينة طرابلس بعد أن هدم المدينة
القديمة (المينا) ، وقدر لهذه المدينة القلاونية أن تصبح من أعظم مدن الشام
في عصر دولتي المماليك البحرية والشرابية ، وما زالت هذه المدينة بآثارها
الاسلامية العديدة من مدارس ومساجد وقياب وخانات وحمامات وأسواق
تؤلف القسم الأعظم من طرابلس الحالية . ويمتد هذا القسم على جبل أبي
سمراء (تل الحجاج) وعلى النثر الواقع شرق نهر أبي علي وهو المسمى بـتلة
القبه ، وعلى جانبي الطرق المؤدية إلى بيروت جنوبي وإلى اللاذقية شمالي ،
وفي السهل الفاصل بين طرابلس المدينة وطرابلس الميناء (٢) .

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة طرابلس .

فليب حني ، لبنان في التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريجة والدكتور فقولا زيادة ،
بيروت ١٩٥٩ ص ٣٥٢

(٢) أنظر تقرير بعثة البعثات إلى لبنان منذ ١٥ نيسان حتى آخر أيار سنة ١٩٥٣

أما طرابلس المينا فتقع في نهاية السهل الخصب الممتد من مدينة طرابلس « القلاونية » الى الساحل والذي ينتهي بشبه جزيرة تحيط بها مياه البحر من الشمال والجنوب والغرب . وتكمل منطقة الميناء المذكورة بأربع جزر صخرية أشرنا إليها فيما سبق ، وأهمها الجزيرة المعروفة عند أهل طرابلس بجزيرة الأراتب ، ويقصدونها بالسفن للتعز ، وطرابلس المينا الحالية هي الموضع الذي كانت تقوم فيه مدينة طرابلس في العصور القديمة الى أن أمر قلاوون بدمها تماما سنة ١٢٨٩ م .

(أولا) تاريخ طرابلس في العصر الاسلامي

تاريخ طرابلس القديم :

طرابلس الشام مدينة فينيقية الانشاء ، فقد أسسها الفينيقيون على امتداد الشاطئ الشمالي الشرقي لشبه جزيرة المينا ، وأطلقوا عليها اسم «أثر» Athar . ولا نعرف تاريخ تأسيس « أثر » على وجه التحديد ، وكل ما نعرفه في هذا السيل أنها كانت تشتمل في عصر السيادة الفارسية في القرن الرابع ق. م . وبالذات في سنة ٣٥٩ ق. م وهي السنة الأولى من عهد الملك ارتخشستا الثالث أوكوس Artaxerxes III Ochus (٣٥٩ ق. م - ٣٣٨ ق. م) من ثلاثة أحياء تمثل المدن الفينيقية الثلاثة : صور وصيدا وأرود ، فكانت تشتمل على حي للصوريين وحي للصيداويين وحي للاروايين ، أي أنها كانت مركزاً لاتحاد فينيقي يضم المدن الثلاثة المذكورة ، أو عاصمة لهذا الاتحاد الثلاثي . وكان يحيط بكل من أحياء « أثر » الثلاثة سرر قائم بذاته (١) وكانت هذه المدينة باعتبارها عاصمة للاتحاد الفينيقي ، مقرا لاجتماع المؤتمر الفينيقي العام ، وهو مؤتمر سنوي كان يشترك فيه نحو ثلاثمائة عضو يمثلون المدن الفينيقية الثلاثة . وكان للتدخل المتواصل الذي يقوم به ارتخشستا في شؤون هذا المؤتمر أثر كبير في أشغال نيران الثورة في « أثر » ضد السيادة الفارسية ، وبدأت هذه الثورة في الحى الصيداوى من « أثر »

(١) Bruce Condé, Tripoli of Lebanon, Beirut, 1961, p. 9

سنة ٣٥١ ق . م ، ثم انتشرت من هذا القطاع الى مدينة صيدا نفسها ، ثم اجتاحت بعد ذلك الساحل الفيضي كله ، وكان نتيجة لهذه الثورة أن تمكنت تسع مدن فينيقية من طرد مملى الفرس فيها وأعلنت بذلك استقلالها ، فاضطر ارمحشتا ازاء هذه الحركة الى الخروج من بابل على رأس جيش كثيف قوامه ٣٠٠ ألف من المشاة و٣٠ ألف من الفرسان ، قاصدا صيدا ، وتمكن من استرجاع المدينة ، بعد أن أبدى أهلها مقاومة شديدة واستبلوا في الدفاع عن مدينتهم ، وكان انتقامه منهم هائلا ، اذ نقل سكانها الذين نجوا من الموت الى عاصمته بابل ، وأضرهم النار في أبنية المدينة . وخافت المدن الأخرى النائرة أن تنهى الى هذا المصير ، فاستسلمت للفرس بعد سقوط صيدا مباشرة (١) .

ثم رحبت « أثر » بالاسكندر المقدوني كمحرر لها من نير الفرس ، فاستلمت لعاكره سنة ٣٣٣ ق . م شأنها في ذلك شأن غيرها من مدن الساحل الفيضي مثل ماراثوس ، وأرواد ، وجيل ، وصيدا . أما صور فقد ظلت وحدها تقاوم جيوش الاسكندر حتى تمكن من فتحها سنة ٣٣٢ ق . م بعد حصار بحري وبري دام نحو سبعة شهور . وانتقم منها بأن تركها وراءه خرابا تلتهه النيران .

ثم تمزقت امبراطورية الاسكندر بعد وفاته ، وكانت سرورية من نصيب سلوقس الأول (٣١٢ - ٢٨٠ ق . م) الذي ضمها الى أملاكه سنة ٣١٢ ق . م واتخذ أنطاكية التي أسما على الضفة اليسرى من نهر العاصي وسماها باسم أبيه أنطيوخس ، حاضرة له سنة ٣٠٠ ق . م . وفي هذا العصر السلوقي تحولت بعض المدن ذات الأسماء السامية القديمة الى مدن هلنستية في الاسم وفي العمران ، فمدينة بريتوس (بيروت) أصبحت تسمى لاوديسة ، ومدينة حماه سميت أيغانية ، وأثر أصبحت تسمى تريبوليس أي المدينة الثلاثية ،

(١) فيليب حنّ ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، الجزء الأول ، ترجمة الدكتور جورج حداد : بيروت ١٩٥٨ ص ٢٤١ - ٢٤٨
Bruce Condé, op. cit. p.9.

رمع أن أغلب هذه المدن السورية القديمة التي تأخرت قد فقدت صفتها الهلنستية في العصر الروماني ، واستردت بالتدريج شخصيتها السامية ، فان مدينة تريبوليس تعتبر الاستثناء الوحيد لهذه المدن ، فقد ظلت تحتفظ باسمها الاغريقي ، الذي عربيه المسلمون الى طرابلس (١) .

ثم دخلت تريبوليس في فلك الامبراطورية الرومانية . وعلى الرغم من أن هذه المدينة لم تلعب في العصر الروماني دورا تاريخياً هاماً ، ولم تظفر بالمكانة السامية التي ظفرت بها بعض مدن لبنان مثل بيروت التي أصبحت تؤلف المركز الثقافي للرومان ، ولاوديسة (اللاذقية) ، وأقامية ، وحمص ، ودمشق وهليوبوليس (بعلبك) التي أصبحت المركز الديني ، فقد اهتم الرومان بمدينة تريبوليس ، فجمارها بالمباني الرائعة والعمائر الفخمة للالهة عشرتوت (الهة السماء) وللاله أدونيس اله الجمال ، وللاله ديوسكوريدس (ابن جويتر) . وللأسف لم يصل الينا اليوم شيء من هذه الأبنية في موضعه اللهم الا ما استخدم من أعمدتها الجرانيتية والرخامية وبعض أحجارها المنقوشة في بناء المساجد والمدارس الطرابلسية .

الفتح العربي :

أصبحت تريبوليس في القرن السادس الميلادي بزلزال عنيف أدى الى تخريب عدد كبير من آثارها القديمة الا أن المقاومة الشديدة التي قابلت بها هذه المدينة ، الجيوش العربية سنة ٦٣٥ م تدل دلالة واضحة على أنه أعيد بناؤها من جديد قبيل الفتح العربي (٢) .

كانت حصون مدينة طرابلس عند الفتح العربي في غاية الوثاقه والاحكام ، ولكن المدينة كانت مهددة بقطع الاتصال بريا مع غيرها من المدن ، لأن المدينة كانت تمتد على شبه جزيرة المينا ، وكان في إمكان

(١) فيليب حقي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ١ ص ٢٧٨

(٢) M. Sbernheim, Corpus Inscriptionum Arabicarum, t. II. 1909, p. 38 • Bruce

تقرير لجنة انيونسكو الى لبنان ص ١٠ Condé, op. cit. p. 10.

التفاحين أن يمزأوها عن المناطق والنواحي المجاورة ويقطعوا عنها المياه التي يزودها بها نهر قاديشا (أبو علي) . وقد حدث هذا بالفعل عندما فتحها معاوية بن أبي سفيان في خلافة عثمان بن عفان . وأغلب الظن أن العرب افتتحوا مدن الساحل اللبناني بعد أن افتتحوا دمشق مباشرة سنة ٦٣٥ م . فقد ذكر البلاذري نقلا عن أبي حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز عن الوضين ، أن يزيد بن أبي سفيان « أتى بعد فتح دمشق صيدا وعرة وجبيل وبيروت ، وهي سواحل ، وعلى مقدمته أخره معاوية ، ففتحها فتحا يسيراً ، وجلا كثيراً من أهلها ، وتولى فتح عرة معاوية نفسه في ولاية يزيد ، ثم إن الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر بن الخطاب أو أول خلافة عثمان بن عفان ، فقصدهم معاوية حتى فتحها ، ثم رمها وشحبها بالمقاتلة ، وأعطاهم القطن » (١) . ونفهم من ذلك أن معاوية افتتح عرة ، وهي مدينة ساحلية تقع شمال طرابلس مباشرة ، ولا تبعد عنها كثيراً . ويبدو أن معاوية حاصر طرابلس ، ولكنها امتنعت عليه لحصانة أسوارها ، والظاهر أنه افتتحها فتحاً يسيراً بدليل ما ذكره البلاذري من أن معاوية « كان يقيم على حصنها يومين والأيام اليسيرة فرمها قوتل قتالا غير شديد ، وربما رمى ففتحها » (٢) . ثم انتفضت طرابلس في آخر خلافة عمر بن الخطاب (٣) ويضيف البلاذري أنه لما « استخلف عثمان وولى معاوية الشام ، وجه معاوية سفيان بن عيينة الأزدي إلى طرابلس ، وهي ثلاث مدن مجتمعة ، فبنى في مرج (٤) على أميال منها حصناً سمي حصن سفيان ، وقطع المادة عن أهلها من البحر وغيره ، وحاصروهم ، فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة ، وكتبوا إلى ملك الروم يألونه أن يمدهم أو يبعث إليهم

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، انقسم الأول نشره الدكتور صلاح الدين الفنجي ،

القاهرة ١٩٥٦ ص ١٥٠

(٢) نفس المرجع ص ١٥٢

(٣) كذلك انتفضت مدينة الاسكندرية في أول خلافة عثمان بن عفان بعد أن وسلها الأسطول

البيزنطي بقيادة منويل ، واحتلها القوات البيزنطية بمساعدة أهلها .

(٤) يقصد بذلك أنسجل الحصن المتد من نهر أبي علي حتى الميت .

بمراكب يهربون فيها الى ما قبله ، فرجحه اليهم بمراكب كثيرة ، فركبوها ليلًا وهربوا ، ، فلما أصبح سفيان - وكان يبيت كل ليلة في حصه ويحصن المسلمين فيه ، ثم يقدو على العدو - وجد الحصن الذي كانوا فيه خاليا ، فدخله ، وكشب بالفتح الى معاوية ، فأسكنه معاوية جماعة كبيرة من اليهود ، وهراندى فيه المينا البرم ، (١) .

طرابلس في عصر بني امية :

أصبحت طرابلس بعد ذلك قاعدة بحرية ودار صناعة ، لتوافر أخشاب شجر الأرز اللبناني ، وذلك في خلافة معاوية ومن خلفه من بعده ومن بني مروان . وكان معاوية يوجه اليها كل عام جماعة كثيفة من الجند ، يشحنها بهم للدفاع عنها اذا ما أغار عليها الروم من جهة البحر ، كما كان يولى عليها عاملا من قبله . وكانت حامية طرابلس تقيم بالمدينة فترة الصيف ، ثم يتقل الجند عن طرابلس الى دمشق عندما يتغلق البحر ، وتضعب الملاحة فيه بسبب الأنزاء والعراصف ، فيبقى العامل في قصره لا يفارقه مع عدد قليل من الجند ، وتغلق أبواب المدينة . وظل الأمر على هذا الحال حتى كانت أيام الخليفة عبد الملك بن مروان ، الذي أعاد بناء حصن طرابلس القديم . ويذكر البلاذري أنه قدم في أيامه « بطريق من بطارقة الروم ومعه بشر منهم كثير ، فآل أن يعطى الأمان على أن يقيم بها ، ويؤدى الخراج ، فأجيب الى مسئلته فلم يلبث الا سنتين أو أكثر منهما بأشهر حتى تخين ققول الجند عن المدينة ثم أغلق بابها ، وقتل عاملها ، وأمر من معه من الجند وعدة من اليهود ولحق وأصحابه بأرض الروم . تقدر المسلمون بعد ذلك عليه في البحر وهرج مترججه الى ساحل للمسلمين في مراكب كثيرة ، فقتلوه ، ويقال بل أسروه

(١) البلاذري ١٥١ ، وقد ذكر البلاذري في كتابه انبلدان أن معاوية نقل الى طرابلس جماعة من الفرس (أنظر انبلدان ، لندن ١٨٩١ ص ٣٢٧)

وبعثوا به الى عبد الملك فقتله وصلبه ه (١) . وقيل أن عبد الملك بعث اليه من حاصره بطرابلس ، ثم أخذه سلماً ، وحمله اليه ، فقتله . وقيل أيضاً أن طرابلس انتقضت أيام عبد الملك ثم افتتحها الوليد بن عبد الملك في زهاءه (٢) .

وظلت طرابلس طوال العصر الأموي أحد ثغور الشام الحصينة التي تهتم بها الخلفاء الأمويون ، فرموا قلاعها وأسوارها ، وشحنوها بالأجناد والمقاتلة ، وأقاموا الحرس على منازرها ، واتخذوا المواقيد بها (٣) ويبدو أنهم فعلوا ذلك احتياطاً لأي غزو بحري يقوم به الروم . كما فعلوا سنة ٢٥ هـ عندما غزوا الاسكندرية وساحل الشام (٤) ، وكما فعلوا بعد ذلك عندما أغاروا على ساحل اللاذقية سنة ١٠٠ هـ ، في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فهدموا مدينتها ، وسبوا أهلها (٥) .

طرابلس تحت ظل الفاطميين :

ولما قامت الدولة العباسية ، أصبحت طرابلس تابعة لولاية دمشق ، وظلت كذلك الى أن خضعت مع غيرها من مدن الشام لنفوذ أحمد بن طولون ٢٦٤ هـ ، وابنه حمارويه من بعده (٦) . ثم عادت طرابلس مرة ثانية الى نفوذ العباسيين ٢٨٧ هـ . ثم خضعت طرابلس مرة ثانية لمصر في عهد محمد بن طنج الأخشيد سنة ٣٣٠ هـ . وظلت طرابلس الشام تابعة لمصر الأخشيدية الى أن استولى الفاطميون على الشام سنة ٣٦١ هـ ، ففصلت حكومة طرابلس عن إقليم دمشق ، وأصبحت مدينة طرابلس يتولاها عامل من قبل الخليفة الفاطمي في القاهرة .

(١) البلاذري ص ١٥١

(٢) نفس المرجع .

(٣) نفس المرجع .

(٤) ابراهيم أحمد المعري ، الدولة الإسلامية والإمبراطورية الروم ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٦٢

(٥) البلاذري ص ١٥٧

(٦) حسن أحمد محمود ، مصر في عصر الطولونيين ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٤٧ - ٦٢

تألفت طرابلس في عهد الفاطميين تألفاً يشهد به من كتب عنها في ذلك العصر من الرحالة والمؤرخين . فقد وصفها الاصطخرى في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري في كتابه «مسالك الممالك» بأنها «مدينة على بحر الروم عامرة ذات نخل وقصب سكر وخصب» (١) وكذلك وصفها المقدسي من علماء النصف الثاني من القرن الرابع الهجري بأنها أجمل من صيدا ويبروت وهما مدينتان على الساحل حصينتان (٢) .

وقد تعرضت طرابلس لغارات بحرية قام بها البيزنطيون الذين كانوا دائمى التطلع لاسترداد الشام ، ففي سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م.) غزا الروم الساحل السوري، وافتتحوا حصن عرقة، واكنسحروا نواحي طرابلس ، ثم أعادوا الكرة سنة ٣٦١ هـ، وانتهوا بيبروت وجبيل، وفي سنة ٣٨٥ هـ قام البيزنطيون بحملتين فاشلتين ضد طرابلس ، اذ تصدى لهم أهل المدينة ودافعهم دفاعاً مجيداً ، وأرغموا الامبراطور بازيلوس على رفع الحصار . وكان السلاجقة قد ثبتوا أقدامهم في شمال الشام ، فاستولوا على حلب ودمشق ، ولم يبق من أملاك الفاطميين في الشام غير مدن الساحل اللباني ابتداء من طرابلس في الشمال . وكانت طرابلس في النصف الأول من القرن الخامس الهجري مدينة عامرة كثيرة الخيرات ، وصفها الرحالة الفارسي ناصر خسرو سنة ٤٣ هـ (١٠٤٦ م) بقوله : « وحول المدينة المزارع والبساتين وكثير من قصب السكر وأشجار التارنج والترنج والموز والليمون والتمر . وكان عمل السكر يجمع حينذاك » ثم وصف المدينة وذكر أهم معالمها في العصر الفاطمي فقال : « ومدينة طرابلس مشيدة بحيث تكون ثلاثة من جدرانها مطلة على البحر ، فاذا ماج علت أمواجه السور، أما الجانب المطل على اليابس فيه خندق عظيم ، عليه باب حديدى محكم ، وفي الجانب الشرق من المدينة قلعة من

(١) الاصطخرى (أبو اسحق الفارسي) : مسالك الممالك ، الجزء الأول من المكتبة الجغرافية العربية لندن ١٩٢٧ ، ص ٦١

(٢) المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، لندن ١٩٠٦ ص ١٦٠

الحجر المصقول عليها شرفات ومقانات من الحجر نفسه ، وعلى قتها عرادات لرقائنها من الروم . فهم يخافون أن يغير هؤلاء عليها بالسفن . ومساحة المدينة ألف ذراع مربع ، وأربطتها أربع أو خمس طبقات ، ومنها ما هو ست طبقات أيضاً . وشرارعتها وأسواقها جميلة ونظيفة حتى لنظن أن كل سوق قصر مزين . وقد رأيت بطرابلس ما رأيت في بلاد العمجم من الأطعمة والغواكه ، بل أحسن منه مائة مرة » . وأخيراً يصف المسجد الجامع فيقول : « وفي وسط المدينة جامع عظيم نظيف جميل النقش حصين ، وفي مساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام في وسطه فواره من النحاس الأصفر » (١) .

طرابلس حاضرة بني عمار :

ظلت طرابلس تحت الياذة الفاطمية الى أن استقل بها أبو طالب بن عمار ، قاضى طرابلس واستبد بأمرها ، فلما ترقى في رجب سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧١ م) قام مكانه ابن أخيه الملك أبو الحسن بن عمار الذي تلقب بجلال الملك (٢) . وكان أمراء بني عمار يشجعون العلماء والأدباء بالعطايا والهدايا وأسسوا مدرسة سموها دار العلم ، وكانت مكتبة طرابلس في عهدهم تضم مائة ألف مجلد . وفي عهدهم بلغت طرابلس ذروة مجدها وعظمتها (٣) واكتمل ازدهارها الاقتصادي والفني ، وأهم ما اشتهرت به طرابلس في هذا العهد صناعة الورق الذي يفوق ورق سمرقند من حيث الجودة . ولكن لم يتح لهذا الرخاء أن يستمر طويلاً ، ففي الوقت الذي تولى فيه الأمير فخر الملك أبو علي عمار بن محمد بن عمار آخر أمراء بني عمار إمارة طرابلس سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) ، كانت الحملة الصليبية الأولى في طريقها الى بلاد الشام ، وتمكن بلدوين من الاستيلاء على الرها في نفس هذا

(١) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ ص ١٣

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة بولاق ١٢٩٠ هـ ج ١٠ ص ٢٦

أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، القسطنطينية ١٢٨٦ هـ ج ٢ ص ١٩٨

(٣) ابن الأثير ، المربع السابق ج ١٠ ص ٢٦

العام، وأسس فيها أولى الإمارات اللاتينية ، كما تمكن بوهمند من الاستيلاء على أنطاكية في العام نفسه ، وأسس فيها إمارة صليبية . واستمرت جيوش الصليبيين في تقدمها جنوباً نحو بيت المقدس مثنى طريقين ، أحدهما جوفى والآخر ساحلي ، وتمكن ريموند دي سان جيل Raymond de Saint Gilles كوث دي تولوز من الاستيلاء على حصن الأكراد ، ثم هاجم عرقة ، فقاومته طويلاً مما أضره الرفع الحصار عنها أملاً في الاستيلاء على بيت المقدس . وقيل أن فخر الملك بن عمار بعث إليه هدايا قيمة وأمر ألا تطالته حتى يصرفه عن دولته . وبالفعل تابعت جيوش الصليبيين سيرها جنوباً ، فاستولت على بيت المقدس ١٠٩٩ ، وتولى إمارتها جود فروي ، ثم خلفه أخوه بلدوين بعد عام واحد . وكان ريموند دي سان جيل أو صنجيل حسب المصادر العربية يزعم العودة لمهاجمة طرابلس أملاً في الاستيلاء عليها وجعلها مركزاً لإمارة بهذا الاسم ، بعد أن فشل في الظفر بإمارة بيت المقدس ، فاقبل إليها مع فرقة من فرسانه ، وهاجمها ، ولكنه لم يوفق في افتتاحها لحصانها ووثاق أسرارها ، فاضطر إلى محاصرتها ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م) ، ولما طال عليه الحصار أقام على التل المشرف على نهر قاديشا قلعة عرفت باسمه ، وكان ذلك في ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) وفي ذلك يقول ابن الأثير « وأقام على طرابلس بحصرها ، فحيث لم يقدر أن يملكها بنى بالقرب منها حصناً وبني تحته ربضاً ، وأقام مراصداً لها ومتظراً وجود فرصة منها » (١) . وكان الأمير فخر الملك يغير على هذا الحصن لضعاف خصومه ، ففي سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤ م) خرج فخر الملك ابن عمار في عسكره مع عدد كبير من أهل طرابلس وهاجموا « الحصن » الذي بناه صنجيل عليهم ، وأنهم هجموا عليه على غرة من فيه ، فقتل من به ونهب ما فيه وأحرق وأخرب وأخذ منه السلاح والمال والديباج والفضة الشيء الكثير وعاد إلى طرابلس سالماً (٢) . وهاجم الأمير فخر الملك هذا الحصن مرة ثانية في طلعة سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥ م) « فأحرق ربضه

(١) نفس المرجع ص ١٥٤

(٢) ابن القلائس ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ ص ١٤٦

ووقف صنجيل على بعض سقوفه المحترقة ، ومع جماعة من القمامة والفرسان ، فأنحسف بهم ، فأرض صنجيل من ذلك عشرة أيام ومات وحمل الى القدس فدفن فيه . ثم أن ملك الروم أمر أصحابه باللاذقية ليحملوا الميرة الى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس ، فحملوها في البحر ، فأخرج اليها فخر الملك بن عمار أسطولا فعجى بينهم وبين الروم قتال شديد ، فظفر المسلمون بقطعة من الروم فأخذوها وأسروا من كان بها وعادوا (١) .

سقوط طرابلس في ايدي الصليبيين :

اشتد حصار الفرنج لمدينة طرابلس وكان الأسطول الخوي يقطع الأقوات على المدينة من البحر ، بينما كانت قوات الفرنج تحاصر الميناء براً بعد أن انتسفت الزروع والبساتين الراقعة على نهر قاديشاء وطال الحصار ، وانقطعت الأقوات عن طرابلس ، واشتدت المجنة على سكان طرابلس « فعدمت الأقوات به ، وخاف أهله على نفوسهم وأولادهم وحرملهم ، فجلا الفقراء ، وانضى الأغنياء وظهر من ابن عمار صبر عظيم وشجاعة ورأى سديد » (٢) .

وفي سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) تابعت المكاتبات بين فخر الملك بن عمار الى السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاة السلجوقي ، ووصف له فخر الدين عظم « ما ارتكبه الأفرنج من الفساد في البلاد وتملك المعافل والحصون بالشام والساحل والفتك في المسلمين ومضايقة ثغر طرابلس والاستغاثة اليه والاستصراخ والحض على تدارك التماس بالمعونة » (٣) .

ولما اشتد الأمر بفخر الملك من حصار الأفرنج وتجاوز أيامه ، (٤) وقلت عنده الأموال ، وقامى أهل طرابلس الفقراء ، اضطروا الى الحجر

(١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤

(٢) نفس المرجع .

(٣) ابن القلائس ، ص ١٥٦

(٤) كان السبب في استمرار مقاومة أهل طرابلس للصليبيين أنهم غفروا سنة ٥٠٠ هـ بمركب تحمل مؤناً وأتواناً من جزيرة قبرص وأنطاكية ، « فاشتدت قلوبهم وغفروا على سقط البند بعد أن كانوا استسلموا » ابن الأثير ج ١٠ ص ١٧٠

على أموال الأغنياء ووزعها على الفقراء متبعا في ذلك النظام الاشتراكي الاسلامي ، وفي ذلك يقول ابن الأثير : وأجرى ابن عمار الخرايات على الجند والضعفاء ، فلما قلت الأموال عنده شرع يقسط على الناس ما يخرج في باب الجهاد ، فأخذ من رجلين من الأغنياء مالا مع غيرهما ، فخرج الرجلان إلى الفرنج وقالوا أن صاحبنا صادفنا ، فخرجنا إليكم لتكون معكم ، وذكروا له أنه تأتيه الميزة من عرقة والجبل ، فجعل الفرنج جمعا على ذلك الجانب بحفظه من دخول شيء إلى البلدة فأرسل ابن عمار ، وبذل للفرنج مالا كثيرا ليسلموا الرجلين إليه ، فلم يفعلوا ، فوضع عليهما من قلعهما غيلة . وكانت طرابلس من أعظم بلاد الإسلام وأكثرها تجملا وثروة ، فباع أهلها من الخلى والأواني الفضية مالا حثيثا عليه ، حتى بيع كل مائة درهم نقرة بدينار (١) .

وطال ترقب فخر الملك لوصول الامدادات من بغداد دون جدوى ، فعزم على الخروج بنفسه لمقابلة السلطان السلجوقي والانتصار به ، فاستأجر عه بطرابلس ابن عمه أبا المناقب ، ووجره أصحابه ، وأمره بالمقام بالمدينة ورتب معه الأجناد برا وبحرا ، وأعطاهم جامكية ستة أشهر مطلقا ، وجعل كل موضع إلى من يقرم بحفظه بحيث أن ابن عمه لا يحتاج إلى فعل شيء من ذلك (٢) . وخرج الأمير فخر الملك قاصدا بغداد في رمضان سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) . وصار إلى دمشق . فأكاد يصل هناك حتى بلغه بخروج ابن عمه عليه ومناذاته لشعار الأفضل شاهنشاه بن بلو الحمال . وزير الخليفة الأمر بأحكام الله القاطن (٣) . فكتب فخر الملك إلى أصحابه يأمرهم بالتبضع على أبي المناقب وحمله إلى حصن الخراي من حصون طرابلس ، ففعلوا ما أمرهم .

(١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤

هذا النص يدلنا على أن النظام الاشتراكي طبق على طرابلس عند الضرورة ، فمردود أموال الأغنياء ووزعت على الفقراء ، وكان هناك فريق من الرجبين الذين لم يرفضهم مصادرة أموالهم في سبيل الوطن ، فآثروا مع الأعداء ودلّوهم على عورات المسلمين ، ولاشك أن هذا النص على جانب كبير من الأهمية لأنه يكشف لنا عن دور هام قامت به مدينة طرابلس ، قلعة العربية في العصر الاسلامي ، وقلعتها في العصر الحاضر .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٧٠

(٣) ابن القلائس ص ١٦٠ - ابن الأثير ص ١٧٠

ولكن أهل طرابلس كانوا الأفضل يقيمون منه واليا يقيم بطرابلس ،
 كما طلبوا منه أن يرسل اليهم الميرة في البحر « فسير اليهم شرف الدولة
 ابن أبي الطيب واليا ومعه الفيلة وغيرها مما يحتاج اليه البلاد في الحصار » (١)
 وما كاد هذا الوالي يصل الى المدينة حتى قبض على جماعة من أسرة
 ابن عمار وأتباعه وصادر أموالهم وعقاراتهم ، ونفاهم الى مصر .

عاد فخر الملك بن عمار من بغداد في منتصف المحرم سنة ٥٠٢ هـ .
 فأقام بها عدة أيام وتوجه منها مع بعض عسكره الى جبيل ، فدخلها واستقر
 بها ، وظل هناك الى أن استولى الصليبيون عليها بعد ذلك .

أما الفاطميون فقد كانوا أقل كفاية من بني عمار في الدفاع عن آخر
 معقل عربي على الساحل السوري ، فقد أحكم الأسطول الحنوي والفرنجي
 الحصار البحري على الميناء . وفي أول شعبان سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م)
 وصل الى ميناء طرابلس أسطول حربي كبير شدد الحصار على الميناء وقطع
 عن المدينة كل اتصال خارجي مع مصر ، وفي نفس الوقت هاجم برتران
 دي تولوز Bertrand de Toulouse ابن ريموند دي سان جيل ، ويسميه
 المؤرخون العرب ريموند بن صنجيل أسوار مدينة طرابلس وانضم اليه في الهجوم
 عدد كبير من المقاتلين الأفرنج ، وألصقوا أبراجهم بسور طرابلس ، وشد
 الأفرنج القتال على طرابلس من الأبراج فافتحموا السور ، ودخلوا المدينة عنزة
 يوم الاثنين ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٣ هـ (٢٦ يونيو ١١٠٩ م) ونهبوا
 ما فيها وأسروا الرجال ، وسبوا النساء والأطفال ، ونهبوا الأمراء ،
 وغنموا من أهلها من الأمراء والأمتعة وكب دور العلم الموقوفة مالا يحد
 ولا يحصى ، فان أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالا وتجارة » (٢) .

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٧١

(٢) ابن القلائس ، ص ١٦٣ - ابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٠

طرابلس امارة صليبية :

أصبحت طرابلس مركزا لامارة لاتينية توليها بيت فولرز ، وكانت تضم جبيل وعرقه وطرطرس ، واستمرت هذه الامارة في خلفاء هذا البيت الترابوزي الى أن خضعت لأمراء أنطاكية ، ثم أعلنت جمهورية مستقلة تحت حماية جمهورية جنوة سنة ١٢٨٨ م .

وعلى الرغم من التكتبات الحسام التي منيت بها مدينة طرابلس منذ أن استولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٩ الى أن حررها المنصور قلاوون سنة ١٢٨٩ م (١) (أى سنة ١٨٠ سنة) فقد أعيد بناؤها من جديد في هذا العصر وأطلق عليها اسم Triple ، وأصبحت مركزاً أسقفياً لآثينا ، وأقيمت فيها الكنائس والأديرة والمستشفيات ، وازدهرت من الناحية الاقتصادية ازدهاراً لم تشهد من قبل ، فكانت تصدر الحرير والمنتجات الشرقية (٢) .

وتمت مدينة طرابلس بالحديدة ، وامتدت أرباضها من البحر حتى جبل الحجاج حيث تفرم قلعة صنجيل ، التي استطاعت أن تصمد طويلاً أمام جيوش صلاح الدين .

لقد حاول صلاح الدين الأيوبي أن يحرر سواحل الشام من الصليبيين وكان هؤلاء يشهرون انقرض المواتية للابقاع بين المسلمين وبث بذور الفتنة بين أمرائهم حتى لا يتمكن هذا البطل من تحقيق هدفه ، وهو توحيد الشام ومصر في جبهة اسلامية واحدة يمكنها أن تصمد أمام الصليبيين وتقضي على ملكهم (٣) . فعندما أود صلاح الدين دخول حلب سنة ٥٧٠ هـ

(١) أصيبت طرابلس باضرار فادحة نتيجة لزلازال عام ١١٥٨ م وهو الزلازال الذي أشار اليه أبو الفداء ، بأنه حدث في رجب سنة ٥٥٢ هـ (أنظر أبو الفداء ، المختصر ج ٣ ص ٣٢) وكذلك تعرضت لزلازال آخر حدث سنة ١١٧٠ م أشار اليه فيلبامين انطلي بقوله « حدث زلازال في طرابلس سبب موت عدد كبير من الناس واليهود اذ سقطت عليهم الدور والجدران » أنظر :

Viaje de Benjamin de Tudela, P. 67

Sobernheim, C. I. A. P. 43

(٢) تقرير بثة اليونسكو الى لبنان ص ١٠ و

(٣) جمال الدين الشيال : وحدة مصر وسورية في النصر الاسلامي ، الاسكندرية

١٩٥٨ ص ١٢

(١١٧٤ م) استنجد أمراء الجيش فيها بأعداء صلاح الدين ، وأولهم ملك طرابلس الصليبي الذي خرج من طرابلس الى حمص وحاول الاستيلاء عليها ليقطع طريق العودة على صلاح الدين وجيشه ، ولكنه فشل في خطته ، وسقطت حمص في أيدي المسلمين . وفي ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (٤ يوليو ١١٨٧) حدثت أكبر موقعة في تاريخ الحروب الصليبية بين قوات صلاح الدين وبين جيوش الصليبيين مجتمعة ، موقعة حطين الشهيرة ، وفيها انهزم الصليبيون هزيمة نكراء ، وأسر صلاح الدين ملك بيت المقدس وصاحب الكرك وصاحب جبيل وصاحب تينين ومقدم الداوية وأعوانه .

وفتح انتصار صلاح الدين في حطين الطريق أمامه للاستيلاء على مدن الساحل اللبناني والفلسطيني ، فقد تبع انتصار المسلمين في الموقعة المذكورة استيلائهم على طبرية وعكا ، وبذلك تمهد السبيل أمام الجيش الاسلامي لغزو المدن الساحلية من طرابلس شمالا حتى عسقلان وغزة والداروم ، لقد افتتح قيسارية بالسيف سنة ٥٨٣ هـ (١) ، وأتبعها نجفما وأرسوف ونابلس ، كما افتتح حصن القولة وحصن تينين ، وتم فتح صيدا في ٢١ جمادى الأولى . ثم افتتحت بيروت في ٢٩ جمادى الأولى ، وتلتها جبيل في ٢٧ جمادى الأولى (٢)

ثم توج فتوحاته بفتح بيت المقدس بعد عسقلان فدخلها في ٢٧ رجب (٣) من نفس السنة . وهكذا استكمل صلاح الدين فتح بلاد الشام جميعا باستثناء صور وطرابلس والمرقب وأنطاكية ويعمل صالحي بن يحيى ذلك بأن صور صعب أخذها لاجتماع الفرنج وأما طرابلس فكان قد استولى عليها صاحب أنطاكية وكان من جهة السلطان ، وأما المرقب فلأنه كان حصنا منها لم يتعرض السلطان اليه . (٤)

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٢٠ - ٢٢١

(٢) عماد الدين الاسفهانى : كذب الفتنح القسى في الفتنح القدسى ، نشره كازلو دى لاندبرج

تحت عنوان Conquête de la Syrie et de la Palestine - لندن ١٨٨٨ ص ٢٢ - ٢٣

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ - أبو شامة ، التروستين في أخبار الموحدين

طبعة مصر ١٢٨٨ ج ٢ ص ٨٧

(٤) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، نشره الأب لويس شيخو ، بيروت ١٨٩٨ ص ٢٦

أحدث سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين رد فعل شديد في أوروبا ، وكان ذلك هو السبب المباشر في قدوم الحملة الصليبية الثالثة ، التي اشترك فيها أعظم ملوك أوروبا المسيحية بأمسأ ، وهم فردريك بربروسه ملك ألمانيا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وكانت عكا مسرح أحداث هذه الحملة التي انتهت باسترداد الصليبيين لعكا في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ وعقلاان والرملة . وتم الصلح سنة ٥٨٧ هـ (١١٩٢) على أن يكون الساحل من صور الى يافا في أيدي الأفرنج ، وأن يكون داخل البلاد في أيدي المسلمين ، بشرط أن يسمح للمسيحيين بالهجرة الى بيت المقدس ، وأن تضم طرابلس وأنطاكية للفرنج .

ولما مات صلاح الدين في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣م) تمزقت مملكته بين بنييه واخوته ، واشتد النزاع بينهم وانتهز الصليبيون هذه الفرصة فاستولوا على صيدا ثم استولوا على بيروت سنة ٥٩٤ هـ (١) ، ثم سقطت جبيل في نفس هذا العام ، وسقطت تبين وبيت المقدس سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩م) وسقطت صفد سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م) وطبرية سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٤ م) أما طرابلس فقد كانت مركزا لشن الغارات على الأراضي الاسلامية ، ففي ذي القعدة سنة ٦٠٠ هـ أغار فرنج طرابلس على جيلة واللاذقية وكنوا لقوات المسلمين فقتلوا منهم عددا كبيرا (٢) وحاول الملك العادل أن يحاصرها فلم يزل منها الا مهادنة صاحبها سنة ٦١٤ هـ (٣) .

• • •

أحدث سقوط بغداد في أيدي التتار في ١٠ محرم سنة ٦٥٦ هـ (١٢ فبراير سنة ١٢٥٨) دويا هائلا في سائر أنحاء العالم الإسلامي . ونبه المسلمين في مصر والشام الى ضرورة التكامل وتوحيد الصفوف أمام خطر التتار المدمر ، ولذلك

(١) ابن واصل ، مغرب الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٠ ص ٧٤

(٢) نفس المرجع ص ١٦٦ - ١٦٧

(٣) نفس المرجع ص ١٧٥ - دائرة معارف البستاني ، مادة طرابلس .

حرص سلاطين المالك بعد انتصار المسلمين في عين جالوت في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ (٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠م) على توحيد سورية بعد تحريرها من الصليبيين ، فلم ينس المالك تقارب الصليبيين من التآمر للقضاء على الاسلام ممثلا في قوة مصر المملوكية . ولذلك كان على سلاطين المالك في مصر أن يذهبوا سبيل صلاح الدين الذي كان له الفضل الأعظم في اخراج الصليبيين من بيت المقدس . وذلك بالقضاء على اماراتهم الباقية في أنطاكية وطرابلس وعكا (١).

ويعتبر يبرس بحق خليفة صلاح الدين في الجهاد ضد الصليبيين ، ففي ٦٦٣ هـ (١٢٦٥م) تمكن من الاستيلاء على قيسارية وعثليت وحيفا وأرسوف ، وفي ٦٦٤ هـ جهز عمكراه الى ساحل طرابلس ، ففتح انقلبيات إوحلبا وعرقه وازل على صفد وفتحها في ١٩ شعبان . ثم استولى على يافا في سنة ٦٦٦ هـ وشقيف أرتون في نفس هذا العام ، وتوج فتوحاته في رمضان من هذا العام بالاستيلاء على أنطاكية أقدم دولة لاتينية في الشام ، وعاصمة أقوى الامارات الصليبية الباقية .

ثم هاجم قلاع الصليبيين ، سنة ٦٦٩ هـ فاستولى على مصياف وعكار وحصن الأكراد . وفي فتحه لعكار يقول يحيى الدين بن عبد الظاهر :

ياملك الأرض بشراك فقد نلت الارادة
ان عكار يقينا هر عكا وزيادة (٢)

وأدى استيلاء يبرس على أنطاكية وحصن الأكراد الى اضعاف المراكز الدفاعية المتوزعة حول طرابلس نفسها ، وساعد على ذلك الفقر والخلافات الداخلية التي نشبت بعد وفاة بوهند السابع كونت طرابلس في شوال سنة ٦٨٦ هـ (نوفمبر ١٢٨٧م) ، تاركا امارة طرابلس دون وريث

(١) سيد عاشور ، مصر في عصر دولة المالك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٥١

(٢) أبو الفدا ، ج ٤ ص ٦

نلاحظ أن الظاهر يبرس فاضل الفرنج أيضاً على المرقب وبنياس وأنطراطوس (أنظر صالح بن يحيى ص ٤١)

فورثته أخيه لوسيا على طرابلس ، وبينما كان النزاع على أشده بين لوسيا وبين بارتليميو امبراسور (١) صاحب جيبيل ، وقائد الحيازة في طرابلس ، بعد موت بوهمند ، بسبب عزلته ، وكانت قوات المماليك بقيادة السلطان الملك المنصور قلاوون تحتاح امانة طرابلس ، وتضرب الحصار على المدينة .

تحرير طرابلس على يدى قلاوون :

في أول ربيع الآخر ٦٨٨ هـ (٢٦ أبريل سنة ١٢٨٩ م) دخلت قوات المماليك بقيادة السلطان قلاوون مدينة طرابلس بعد حصار دام ٣٨ يوماً . وتفصيل النفع وفقاً لرواية أبى الفداء ، وكان يشهد هذا الحدث الكبير ، وأن السلطان الملك المنصور خرج بالعاكر المصرية في المحرم من هذه السنة ، وصار الى الشام . ثم سار بالعاكر المصرية الشامية ، ونازل مدينة طرابلس الشام يوم الجمعة من ربيع الأول من هذه السنة ، ويحيط البحر بغالب هذه المدينة ، وليس عليها قتال في البر الا من جهة الشرق ، وهو مقدار قليل ، ولما نازها السلطان نصب عليها عدة كثيرة من الحائيق الكبار والصغار ولازمها بالحصار واشتد عليها القتال حتى فتحها يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر من هذه السنة بالسيف ، ودخلها العسكر عنوة ، فهرب أهلها الى الميناء ، فنجأ أغلبهم في المراكب ، وقتل غالب رجالها ، وسيت ذرارهم وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة . وحصار طرابلس هو أيضاً مما شاهدته ، وكنت حاضراً مع والدى الملك الأفضل وابن عمى الملك المظفر صاحب حماة ، ولما فرغ المسلمون من قتل أهل طرابلس ومنهم ، أمر السلطان فهدمت ودكت الى الأرض ، وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة ستماس ، وبينها وبين طرابلس الميناء ، فلما أخذت طرابلس ، هرب الى الجزيرة المذكورة وإلى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء ، فافتحم العسكر الاسلامى البحر ، وعبروا ينجيولهم سباحة الى الجزيرة المذكورة

(١) بسميه ابر المحاسن سيرتليه الفرغى (النجوم الزاهرة ، طبعة القاهرة ١٩٣٨

ج ٧ ص ٣٢١) .

فقتلوا جميع من فيها من الرجال ، وغنموا ما بها من النساء والصغار .
وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب ، عبرت إليها في مركب ، فوجدتها
ملاى من القتل بحيث لا يستطيع الانسان الوقوف فيها من ثن القتل .
ولما قرع السلطان من فتح طرابلس وهدمها عاد الى الديار المصرية » (١)

وفى فتح طرابلس يقول الشاعر شهاب الدين أبو التاء محمود يمدح
قلاوون :

نهضت الى عليا طرابلس التي أقل عناها أن خندقها البحر (٢)

كذلك مدحه الشاعر نجم الدين الحيمي بقصيدة جاء فيها :—

هنيئاً أيها الملك الممام بنصر لا ينال ولا يرام
نزلت على طرابلس بجيش فدار لشئرها منه لثام
وكان الدوح خيم في حماها فزال وخيمت فيها الخيام
ولو علموا بأخذ كها سريعا لقاموا للفرار وما أقاموا
وظفروا أنهم فيها عظام فهام في جوانبها عظام (٣)

هدم قلاوون مدينة طرابلس وخربها ، وعمد الى بناء مدينة أخرى
لطرابلس تقع بعيدا عن الساحل حتى يحى ذكرى المدينة الصليبية ، وحتى
تتجنب المدينة الجديدة ما قد يصيبها من غارات الفرنجة ، الذين تكتلوا
بعد ذلك في عكا وقبرص . واختار لذلك الغرض الرض الزايق أعلى قلعة
صنجيل ، في موضع يقال له وادى الكنائس ، وأقام في موضع
المدينة المحرقة عددا من الأبراج على طول الساحل الشرقى والشمالى من المينا .
وكانت الأبنية الجديدة تقام من بقايا أبنية المدينة الخربة ، وفى بناء مدينة

(١) أبو الفدا ، المختصر ج ٤ ص ٢٤

(٢) أبو المحاسن ج ٧ ص ٣٢٢

(٣) هذه القصيدة أوردها الشيخ كامل البابا في حديث مجلة الارشاد الاجتماعى العدد ٢٧ ،
نيسان سنة ١٩٦٢ ص ٨

طرابلس الجديدة يقول ابن تغرى بردى « أما طرابلس القديمة ، كانت من أحسن المدن وأطيبها ، ثم بعد ذلك اتخذوا مكانا على ميل من البلدة ، وبنيوه مدينة صغيرة بالاسور ، فجاء مكانا ردىء الهواء والمزاج من النجاسة (١) .

وما زلنا نرى بقايا الأبنية الصليبية مستخدما من جديد فى العقود التى تعلو الأتروب وفى عقد مدخل حمام عز الدين أيلك الموصلى وإلى طرابلس (٦٩٤ - ٦٩٨ هـ) ، وفى عقد المدخل إلى الجامع المنصورى الكبير ، وغير ذلك من آثار الكنائس كما سنوضحه فيما بعد عند دراستنا لآثار طرابلس فى العصر الإسلامى .

طرابلس فى ظل المماليك :

لما هدمت طرابلس ، استقر الحند بحصن الأكراد ، فلما عمرت المدينة بالحوارة للهر ، اختلفت إليها الأجناد ، وعمروا فيها الحمامات والقباسر والمساجد والمدارس ، وأجريت المياه فى دورها بقساكل ، وعمرت دار السلطنة لفرول نائب السلطنة لطرابلس ، وكانت هذه الدار تقع على مرتفع بالقرب من حصن صنجيل بحيث تشرف على المدينة (٢) .

وكان أول من تولى نيابة السلطنة فى طرابلس الأمير سيف الدين بلان التطنخى المنصورى وظل فى منصبه إلى أن نقل إلى حلب فى دولة الأشرف خليل بن المنصور قلاوون سنة ٦٩١ هـ . وخلفه فى النيابة الطرابلسية الأمير سيف الدين طغرل الأيغاني وأقام بها أياما واستعفى ، فأعفاه الأشرف خليل ثم ولى نيابة طرابلس بعد ذلك الأمير عز الدين أيلك الخازندار المنصورى فظل بها حتى عزله عنها السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصورى سنة ٦٩٤ هـ ، وفرض نيابتها إلى الأمير عز الدين أيلك الموصلى ، فولها حتى وفاته سنة ٦٩٨ هـ . ونلاحظ أن المسجد الجامع افتتح فى عهد الملك الأشرف خليل (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) فى ولاية عز الدين أيلك الخازندار وإلى الأمير سيف الدين اسنمدر بنسب عدد كبير من أبنية طرابلس فى عصر دولة المماليك

(١) أبو الحسن ج ٧ ص ٢٢٢

(٢) أنظر نص التبرير الذى أورده سورنهام فى C. I. A ص ٤٦

البحرية فقد أسس حثاما وقيدارية وطاحونا ومساكن لمائتيه كما أعاد بناء جزء كبير من قلعة صنجيل، وشيد أبراجا بطرابلس (١). وبلغت طرابلس في منتصف القرن الثامن الهجري ذروة عظمتها وازدهارها العمراني ، واتسعت أعمالها حتى صارت أعظم من نيابة حماة . وهكذا تهيم سلاطين المماليك البحرية بتوسيع العمران في المدينة ، فشمسها برعايتهم وأولوها جانباً كبيراً من اهتمامهم وعنايتهم وحلوا بالمباني الفخمة التي ما تزال قائمة حتى يومنا هذا . وبالإضافة الى هذه الحركة العمرانية الزاهرة ، استعادت طرابلس رخاءها الاقتصادي ، فكثر أسواقها ومرافقها ، واتسعت تجارتها ، وكثرت خاناتها التي تأوى التجار من سائر بلاد العالم بحيث أصبحت مدينة طرابلس في عصر المماليك صورة مصغرة لمدينة القاهرة ، من حيث كثرة المساجد والمدارس بقبابها ومآذنها وبواباتها ، ومن حيث نشاط سوقها الاقتصادي بسبب الصادرات والواردات . وقد لاحظ غرس الدين خليل الظاهري ذلك فقال : « وهي مدينة حسنة بها جوامع ومدارس وأسواق وحمامات وعمائر حسنة ، وهي على شاطئ البحر المحيط ، يقال انها شامية مصرية لحسن هيئتها » (٢) .

ونلاحظ أن أهم ما كانت تمتاز به طرابلس تجارة الحرير المصنوع فيها وفي بعض أعمالها مثل القندروس والكهف والحراي والعليفة ، وكذلك صناعة الصابون والمواد الكيماوية كالصودا والبرتاس . وما زال بطرابلس حتى اليوم خاتان يعرف أحدهما بخان الخياطين والآخر خان الصابون . ومن بين الرحالة المسلمين الذين وصفوها في هذا العصر ، الرحالة ابن بطرطة ، فقد زارها أيام الناصر محمد بن قلاوون ووصفها بقوله : « وهي إحدى قواعد الشام وبلدانها الضخام ، تحترقها الأنهار ، وتحفها البساتين والأشجار ويكسفها البحر عرافته العميمة ، والبر بخيرانه القيمة ، ولها الأسواق العجيبة

(١) النسخ السابق من ٤٧

(٢) غرس الدين خليل بن شامين الظاهري ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك نشره بول رافيس ، باريس ١٨٩٤ ص ٤٨ .

والساح الحصينة ، والبحر على ميلين منها ، وهي حديثة البناء . وأما طرابلس القديمة ، فكانت على ضفة البحر ، وتملكها الروم زماناً ، فلما استرجعها الملك الظاهر (١) ، خربت ، واتخذت هذه الحديثة . وهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الأتراك ، وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الأمراء (٢) ، وصكته منه بالدار المعروفة بدار معادة .. وهذه المدينة حمامات حسان منها : حمام القاضي انقري ، وحمام سندمور (٣) ، وكان سندمور أمير هذه المدينة ويذكر عنه أخبار كثيرة في الشدة على أهل الحنايات (٤) .

وظلت طرابلس تحتفظ بمكانتها السامية من بين نيايات الشام ، حتى أصبحت منذ سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) ثالث نياية سورية . وتعرضت سنة ٨٧٤ هـ (١٣٦٣ م) لغارة قام بها بطرس دي لوزنيان صاحب قبرص ، فافتحها وأحرقها ، ولكنه اضطر إلى الجلاء عنها (٥) ، ثم أغار عليها لوزنيان مرة أخرى في يناير وسبتمبر سنة ١٣٦٧ م .

وفي عصر دولة المماليك الشراكسة حظيت طرابلس بعناية السلاطين ، فأمهروها بالأبنية الفخمة من مدارس ومساجد ، وعمل بعض السلاطين على إبطال المظالم المحدثّة على أهل طرابلس ، كالمؤيد شيخ (سنة ٨١٧ هـ (١٤١٤ م) أو أبطلوا بعض الرسوم المفروضة على الألوال وخراج الكروم ، كالظاهر جقمق سنة ٨٤٦ هـ (١٤٤٢ م) أو الغوا الرسوم المفروضة على مذهب طرابلس كالأشرف قايتباي سنة ٨٧٢ هـ .

(١) استرجعها المتصور تولاون لا الظاهر بيبرس .

(٢) تهریف من طينك وهو الأمير سيف الدين طينك الأشرفي الناصري الحاجب تولى نياية طرابلس في جمادى الآخرة سنة ٧٢٦ ثم نقل في ربيع الأول سنة ٧٢٣ إلى نياية غزة ، ثم أعيد إلى نياية طرابلس سنة ٧٣٥ ، وعمر بظهيرها مسجداً ثم عزل في محرم سنة ٧٤١ ثم عاد إلى نياية طرابلس زمن فتنة الناصر أحمد نظره بها إلى صفر سنة ٧٤١ وتوفي في ربيع الأول .

(٣) نسبة إلى الأمير سيف الدين أستاذ كرجي المصوري الذي ذكره آغا .

(٤) أين بطرقة ، الرحلة طبة دار صادر - بيروت ، بيروت ١٩٦٠ ص ٦٤ - ٦٥ .

(٥) دائرة معارف البستاني - مادة طرابلس .

واحتفظت طرابلس بازدهارها الاقتصادي في القرن السادس عشر ،
ثم انحط هذا الاقتصاد بالتدريج بسبب سوء الإدارة العثمانية ، وبسبب
العلاقات الداخلية بين الباشوات الأتراك . ولم تلبث طرابلس أن تنازلت
عن مكانتها الأولى لمدينة بيروت التي أصبحت العاصمة الفعلية للإلاد عقب
الاستقلال .

(ثانياً) آثار طرابلس الإسلامية

(١) المساجد :

١ - المسجد الكبير :

عندما زار الرحالة الفارسي ناصر خسرو مدينة طرابلس في النصف
الأول من القرن الخامس الهجري ، وصف مسجدها الجامع بقوله
« وفي وسط المدينة جامع عظيم نظيف ، جميل النقش حصين ، وفي ساحته
قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام في وسطه فوارة من النحاس الأصفر » (١)
هذا الجامع لم يعد له وجود بطبيعة الحال لأن مدينة طرابلس التي وصفها ناصر
خسرو تهدمت تماماً سنة ٦٨٨ هـ بعد أن افتتحها المنصور قلاوون . أما الجامع
الكبير الحالي فقد أقيم بعد ذلك في المدينة الجديدة ، على الضفة اليسرى
من نهر قاديشا (أبي علي) ، وكان موضع هذا الجامع كنيسة أقيمت في أوائل
القرن الثاني عشر الميلادي ، في الأرقط الذي كان فيه ريمونندي سان جيل
يحاصر مدينة طرابلس العربية من حصنه الواقع على تل الحجاج . ولكن
هذه الكنيسة هدمت عقب زلزال سنة ١١٧٠ م ، أي سقوط أسرة تولوز
وقيام أسرة أنطاكية الإيطالية بسنرات قليلة . وعمل الأمير بوهند على ترميم
الكنيسة الفرنجية الخربة ، وقد ترك مهندسوه الإيطاليون طابع بلادهم
على البرج اللومباردي القائم حالياً بأعلى المدخل الشمالي للجامع . ويبدو أن هذه
الكنيسة تأثرت بزلزال سنة ١٢٨٧ م الذي أحدث فيها أضراراً جسيمة ،

(١) ناصر خسرو ، سفرنامه ص ١٣

ثم تهدمت على أثر دخول جيوش المماليك الظافرة في مدينة طرابلس سنة ١٢٨٩ م . وبقيت منها أجزاء استغلها مهندس الجامع في بنائه . ولانستبعد أن يكون المنصور قلاوون قد قنع ببناء بيت للصلاة في نطاق الكنيسة ، دون أن يهدم برجها اللومباردي ، أو جدرانها الخارجية ، أي أنه استغل الجدران القديمة وبابها الرئيسي وبرجها بعد أن انتزع منه النواقيس . غير أن ابنه وخليفته السلطان الملك الأشرف خليل حول البوابة القرطية الطراز ، التي تتوسط جدار الجامع الشمالي إلى باب إسلامي الأسلوب (١) . والبوابة بصورتها الحالية على شكل عقد مدبب ، سنجانه يتناوب فيها اللونان الأبيض والأسود ، ويحتضن العقد صفان من دالات متصلة على شكل زجراج ويبرز أعلى هذين الصفيين عن الآخر . وأغلب الظن أنهما إسلاميان ، وذلك لشيوع هذا النوع من الزخرفة في عمارة طرابلس الإسلامية . ويعلو الصف العلوي من هذين الصفيين أفاريز منبعجة بارزة عددها ثلاثة تستند على أفاريز أفقي تمتد على شكل رف ، تحت صفى الدالات من كلا جانبيهما . ويقوم هذا الأفاريز على عمودين صغيرين ، تاجاهما من الطراز القوطي (٢) .

هذا الإطار البارز ذو الطابع اللاتيني يحيط باب إسلامي الطابع ، فإن عقده المدبب يمتد جانبا إلى أدنى البوابة بحيث يؤلفان عضادتي البوابة ، ويستمر تناوب اللونين الأسود والأبيض في صفوف أحجاره . أما عتبة وهو قطعة واحدة من الحجر فيستند على مسندين محدبين ، وطلة العقد يكسوها ملاط خشن المظهر ، تترسظه زخرفة نباتية من العصر العثماني مكتوب تحتي عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

(١) Sobernheim, op. cit. p. 51.

يحتمل أن تكون هذه البوابة قد حلت من الكنيسة القديمة ووعمت في مدخل المسجد كقواعد صدق من انتصار المسلمين ، كما فعل الأشرف خليل ببوابة كنيسة سان جان بمكا التي أقرعها من الكنيسة المذكورة وحملها إلى القاهرة حيث نصب أخوه الناصر محمد عن بوابة مدرسته بالنحاسين

(٢) Sobernheim, op. cit. p. 51.

أما النقش التاريخي فسجل على لوحة من الخشب ، مثبتة على عتب الباب ، مساحتها ٢٥٠ × ٣٩ سم ٢ . ويتألف النقش من ثلاثة أسطر من الخط النسخي ، يفصل بين كل منها شريط . ويرجع هذا النقش الكتابي ببناء الجامع الى الأشرف خليل سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤م) أى بعد سقوط طرابلس في يدى أيه المنصور قلاوون بأربع سنوات (١) . ونقرأ فى هذا النقش النص التالى (بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الأعظم ، سيد ملوك العرب والعجم ، فاتح الأمصار ، ومبيد الكفار ، الملك الأشرف ، صلاح الدنيا والدين خليل ، قسم أمير المؤمنين ، ابن مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى خلد الله ملكه ، فى نيابة المقر العالى الأميرى الكبيرى العزى عز الدين أليك الخزندار الأشرفى المنصورى نائب السلطنة بالفتوحات والسراجل المحروسة ، عفا الله عنه ، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، والحمد لله وحده) (٢) وبأعلى العضادة اليسرى الباب ، وتحت نهاية النص السابق ، نقش تاريخي بالخط النسخي الصغير ، ومن نفس الأسلوب نصه : (تولا عمارة هذا الجامع المبارك العبد الفقير لله (٣) تعالى سالم الصهيونى ابن ناصر الدين العجمى عفا الله عنه) .

والجامع ببناء اسلامى لا أثر فيه للتأثيرات المسيحية مما يدل على أنه بنى ببناء جديداً وأنه لم يكن داخل كنيسة ، وتخطيط الجامع يتبع النظام القديم للمباجد الجامعة فيشتمل على ثلاث محبتات تحيط بصحن مستطيل وعلى بيت للصلاة . وتعلو هذه المحبتات قبوات متعارضة ، وتطل المحبتات على الصحن بعقود منكسرة مثثة الرؤوس تقيم على دعائم ضخمة مربعة القاعدة . وتتألف المحبة الشمالية من سبعة عقود ، أما كل من المحبتين الشرقية

(١) Max Van Berchem, et Edmond Fatio, Voyage en Syrie, dans, Mémoires de l'Institut français d'Archéologie orientale du Caire, t. XXXVII le Caire, 1914, p. 118.

(٢) أنظر : Sobernheim, op. cit. p. 52.

(٣) وردت فى نص مبره نجام « الى الله »

والغربية فمن خمسة عقود أكثر اتساعاً من عقود الحنية الشمالية . ومجانبات الصحن أقيمت في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) في نيابة المقر السيفي كسناى الناصري ، وعهد بأعمال البناء إلى أحمد بن حسن البعلبكي . وقد سجل ذلك كله في لوحة مندمجة في الجدار الشمالي المطل على الصحن ، ونص الكتابة ما يلي : (بسم الله الرحمن الرحيم ، أما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر أمر بإنشاء هذه الرواقات تكفلة الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المظفر المنصور ناصر الدنيا والدين محمد ابن قلاوون خلد الله ملكه في نيابة المقر الشريف العالي السيفي كسناى (١) الناصري كافل المملكة الشريفة الطرابلسية أعز الله أنصاره بإشارة المقر العالي البدرى محمد ابن أبى بكر شاد الدواوين المعمورة أدام الله نعمته . وكان القراغ منه في شهور سنة خمس عشر وسبعائة وصلى الله على سيدنا محمد . تولا عمارته العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد ابن حسن البعلبكي (٢) .

وواجهة بيت الصلاة تطل على الصحن بسبعة عقود أكثر اتساعاً من عقود الحنية الشمالية ويشتمل بيت الصلاة على بلاطين موازيين لجدار القبلة ، يتجهان إلى ١٤ أسطوان ، ويعلو كل أسطوان قبوة متعارضة فيما عدا أسطوان المحراب فتعلوه قبة على مقرنصات مقوسة . ويفصل البلاطين صف من الدعائم الضخمة عددها ستة ، ويستند العقد الأخير من الجهة الغربية على دعامة ملتصقة بالجدار الغربى .

والى يمين المحراب منبر من الخشب يزدان بزخارف ملونة ، أقامه نائب طرابلس الأمير سيف الدين قرطاي بن عبد الله المنصوري المتوفى سنة ٧٣٤ هـ ويعلو مصراعى باب المنبر تحت صف المقرنصات الأعلى مباشرة نقش كتابي بالخط النسخي نصه (أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك

(١) سيف الدين كسناى تولى نيابة طرابلس من ٧١٥ إلى ٧١٦ هـ

(٢) Sobernheim, op. cit, p. 53

العبد الفقير الى الله تعالى قرطاي بن عبد الله الناصري أثابه الله ، فأقام به من ماله بكتوان بن عبد الله الشهابي ، تقبل الله منه ، وذلك في شهر ذو القعدة سنة ستة وعشرين وسبعماية (١) .

والمظهر العام للجامع لا يدل على العناية بالبناء ، فجدران الجامع كلها مغطاة بطبقة بيضاء من الجير ، والمسجد كله عاقل من الزخرفة . ويتوسط الصحن بناء يتكون من أسطوانتين : الشمالي منهما تتوسطه نافورة للزخوة ، بأعلامها قبة . والجنوبي ينتهي بمحراب عليه لوحة رخامية نقش عليها النص التالي : (أمر بترخيم هذا المحراب المبارك العبد الفقير الى الله تعالى ، أزدمر الأشرفي ، كافل المملكة الشريفة الطرابلسية المحروسة أعز الله أنصاره في أيام مولانا وسيدنا قاضي القضاة الشافعي الامام في مستهل ربيع الآخرة سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة بمباشرة محمد الشاذ) (٢) .

ويعلم المدخل الجنوبي الشرق للمسجد لوحة عليها النص الآتي : (الحمد لله رسم بالأمر العالي السلطاني الملكي المؤيدني أبي النصر شيخ أعلاه الله تعالى وشرفه وأنقذه وصرفه بإبطال المظالم المخدذات على أهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح واللحم والخبز والطرح وغير ذلك بحث لا يعود ، ويبطل ذلك جميعه في هذه الأيام الزاهرة ، خلده الله سلطانها ، وأدام قدرته على المسلمين بتاريخ خامس عشر شهر ربيع الأول سنة سبعة عشر وثمانمائة والحمد لله) (٣) .

وعلى عتب العقد نصف الدائري بالباب الشرق للمسجد المؤدى الى الصحن نقش كتابي نصه (برسم الدخان ومايتأديه من يكون متكلما في ديوان الحجيوية الكبرى واستادارية الديوان الديوان الشريف من سكر وخل وغير ذلك (٤) وبأعفاؤها من ذلك جميعه ومن طرح الصابون والزيت

(١) أنظر : Sobernheim, op. cit. p. 55

(٢) نفس المرجع ص ٥٧

(٣) نفس المرجع ص ٥٦

(٤) خطأ في الكتابة

والبلس ومن جميع ما يحدث من ديوان النيابة والديوان الشريف وغيرها من جميع الكلف والتخادم الحاررية بها العادة قديما والحادثة مستقبلا ومنع خازن دار الكافل من التعرض الى ذلك ، وأخذ شئ منه ، واستقرارها في حماية سيد المرمطين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على حكم المربع الشريف وأن ينقش ذلك في رخام جامع الكبير بطرابلس بأمر الكافل المشار اليه بالمملكة الشريفة ، وأن يسطر ذلك بتاريخ ثاني شهر الله الحرام سنة (١) ثمان وتسعمائة والحمد لله (٢) .

٢ - مسجد عبد الواحد المكناسي :

يعتبر من أقدم مساجد طرابلس في عصر دولة المماليك البحرية ، وهو مسجد صغير يقع خلف سوق الصاغة بناه الشيخ عبد الواحد المكناسي أحد الأولياء الذين نزلوا مدينة طرابلس بعد أن حررها قلاوون من الصليبيين وكان مشهورا بالفضل والتقوى والزهد ، ويتميز هذا المسجد ببساطته الناعمة . وعقود بيت الصلاة فيه تقوم على دعائم ضخمة مربعة الشكل وهي أقرب الى عقود مساجد المغرب الاسلامي منها الى عقود مساجد سريرية . ويترسط صحن الجامع نافورة صغيرة يحيط بها حوض نقش بأعلاه النص الآتي : (أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير الى الله تعالى عبد الواحد المكناسي غفر الله له ولوالديه ولبن كان السبب فيه ، وذلك في تاريخ سنة خمس وسبعماية) (٢) .

ويحيط بصحن المسجد ثلاث محبات تعلوها أسقف مائلة من الآجر على نحو النظام الشائع في مساجد المغرب ، وتستند هذه الأسقف على أعمدة وأوتار من الخشب . وقبة المسجد مضلعة من الخارج ، وترتكز على رقبة من طابقيين ، الأدنى منهما تفتح فيه أربع نوافذ معقودة ، والأعلى مزود بثمان نوافذ . أما من الداخل فالقبة مفصصة من ١٦ فصاً ، وترتكز هذه

(١) عطاء في الكتابة

(٢) Sobernheim, op. cit. p. 59.

(٣) Sobernheim, op. cit. p. 85

المحرزة المفصصة على طابق مشمن في أركانه الثمانية جوفات مثلثة مزدانة بمقرنصات ، والطابق الأدنى مربع في أركانه جوفات مقرسة . وتذكرنا هذه القبة بصفة عامة بالقباب التورنية القديمة .

أما المئذنة فطابعها يختلف عن بقية مآذن طرابلس ، إذ تتكون من ساق مشمنة الشكل تنهى من أعلى بقبة نصف كروية ، ويفتح في جدران المئذنة من أعلى ثمان نوافذ .

٣ - مسجد الأمير طينال :

يطلق عليه حالياً مسجد الأمير طيلان (١) ، وهو تحريف ظاهر من اسم طينال . ويعتبر هذا المسجد أهم مساجد طرابلس وأجملها على الإطلاق بعد المسجد الكبير ، وتذكرنا زخارفه وعناصره المعمارية بمساجد القاهرة أكثر مما تذكرنا بآثار دمشق . ويقع هذا الجامع بظاهر مدينة طرابلس ، قريباً من باب طيلان . وكان هذا المسجد في الأصل كنيسة كرملية من عصر الصليبيين ، هجرت طويلاً بعد أن استولى قلاوون على مدينة طرابلس سنة ٦٨٨ هـ ، ثم استخدمها الأمير سيف الدين طينال الأشرفي الناصري نائب طرابلس في إقامة هذا المسجد سنة ٧٣٦ هـ . وتاريخ إنشاء هذا المسجد مسجل في النقش الكتابي الذي يعلو باب المسجد ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك المقر الأشرفي العالي المولوى الأميرى الناصري نائب السلطنة الشريفة بطرابلس المحرومة انعاماً ، في أيام الملك الناصر في شهر رجب سنة ست وثلاثين وسبعمائة) (٢) .

وهناك نقش كتابي آخر بالقرب من النقش السابق ، عبارة عن وقفية مسجلة فيها اسم نائب السلطنة ثم حدود الوقفية .

(١) وقع ابن بطوطة في نفس هذا الخطأ إذ سمى الأمير باسم طيلان الخاجب بدلا من طينال .

(٢) Sobernheim, op. cit. p. 87

والمسجد يتألف من قسمين منفصلين ، الشمالى منهما بيت للصلاة ،
يشتمل على ثلاثة بلاطات الأوسط ، تفسح من البلاطين الجانبيين ، وينقسم
هذا البلاط الأوسط الى اسطوانتين تعلوهما قبتان .

أما القسم الحزبى من المسجد فضريح دفن فيه طينال يشتمل على تسعة
أساطين ، ويتوسط هذا الضريح قبة كبرى تقوم على رقبة مشتملة ، ويكتنف
الضريح شرقا سلم وفى الجزء الشمالى قاعة جنازية تحتوى على قبرين (١) .

ونلاحظ أن بالمسجد عمودين مركزيين يقرم عليهما عقدان من النوع
الرابط الشائع فى العمائر القوطية ، ويغلب على الظن أن هذين العمودين
وتاجيهما من الكنية القديمة ، ويعتقد الأستاذ أن برشم أنه لوصح
ذلك أى أنه لرببت البناء هذه الآثار الى الكنية لجناز تحديد الرواق الأوسط
والرواقين الجانبيين لها ، وعندئذ تكون رأس الكنية مكان الضريح (٢)
أما الأستاذ بروس كندى فيرى أن هذين العمودين والعمودين الآخرين
الذين تقوم عليهما القبة الحزبية بالمسجد ، كانت مركز الكنية الكرملية القديمة
لأن مجاز هذه الكنية كان يتجه من الشرق الى الغرب أى بعكس اتجاه البلاط
الأوسط فى المسجد ، كما يرى احتمال كون الأسطوان الذى تعلوه القبة
الشالية بالمسجد جزءا من الرواق الشمالى للكنية ، بينما يرجح تهديم المهندس
لرواق الحزبى تمكينا لاقامة البوابة الفخمة المؤدية الى ضريح سيف الدين
طينال (٣) .

أما هذه البوابة الملتصقة بقاعدة القبة القبلىة بالمسجد ، والمؤدية الى
ضريح طينال ، فتعتبر من أحمل البوابات المملوكية ، وهى عبارة عن قطاع
مستطيل الشكل مجوف ينتهى من أعلى بعقد منكسر ، ويشغل ركنى القطاع
مقرنصان ينتهيان من أعلى - بعد أربع حطات متراكبة - بحافة نصف كروية
يحيط بها العقد المذكور . وتردان واجهة البوابة بزخرفة تقوم على تناوب

Van Berchem, op. cit. p. 120 (١)

Ibid. P. 120 (٢)

Bruce Condé, op. cit. p. 48 (٣)

مداميك الحجارة البيضاء مع المداميك السوداء ، ويحيط البوابة من أعلى ومن الجانبين إقريز من الدالات المتصلة على شكل زجراج .

والمئذنة مربعة الشكل ، تزدان جدرانها بعقود صماء ذات وسائد، وتمتاز هذه المئذنة بوجود درج مزدوج في الداخل (١) ، أحدهما يؤدي إلى خارج المسجد والآخر يفضي إلى الداخل . وتنشئ المئذنة من أعلى بشرفة بارزة عن الجدار تفتح في كل وجه منها نافذة مستطيلة الشكل ، ويعبر الشرفة جرسق مستدير ويعتقد بعض الأثريين أن هذه المئذنة كانت في الأصل برج الأجراس التابع للكنيسة الكرملية (٢) ، ومجموع القباب التي يضمها المسجد والضريح أربعة ، أصغرها قبة المحراب ، وهي قبة صغيرة متعددة الفصوص (٢٤ فصاً) تقوم على قاعدة مربعة إلى أركانها جوفات مقوسة تؤلف حطة أولى من المقرنصات ، وتعلو هذه الجوفات حطة ثانية ثم تعلوها بدورها حطة ثالثة من المقرنصات المسطحة على شكل عقود متصلة يتخللها نوافذ . وللضريح منبر بأعلاه لرحمة من الخشب نقش عليها بالخط النسخي النص الآتي : (بسم الله الرحمن الرحيم ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ، تكل هذه منبر في شهر ذي القعدة سنة ست وثلاثين وسبعمائة) (٣) . وفي أدنى المنبر بأعلى الباب منبر من الكتابة النسخية نصه (عمل المعلم محمد الصفدي رحم الله من ترحم عليه) .

٤ - مسجد العطار :

يقع هذا المسجد في قلب مدينة طرابلس على الضفة اليسرى من نهر قاديشا ، بالقرب من خان المصريين وخان الحياطين في شارع سوق الصاغة أهم شوارع المدينة . ويعتبر هذا المسجد ثالث مساجد طرابلس أهمية ، أسسه أحد العطارين الأثرياء سنة ٧٥١ هـ على نفقته الخاصة ولذلك نسب إليه ،

(١) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٦ ، دمشق ١٩٢٨ ص ٥٢

(٢) Bruce Conde, op. cit. p. 50

(٣) Sobernheim, op. cit. p. 93.

وجعل له أربع صفوف ، لكل صفة لها معلم له معلوم يتناوله من وقف الجامع (١) . وتاريخ انشاء هذا الجامع مسجل بأعلى عتب المدخل في لوحة نصها : (بسم الله الرحمن الرحيم - هذا الباب المبارك والمخير عمل المعلم محمد ابن ابراهيم المهندس سنة أحد وخمسين وسبعمائة) (٢) .

وبوابة هذا المسجد تشبه في زخارفها بوابة المدرسة القرطابية المحاورة للجامع الكبير ، فهي عبارة عن قطاع مفرغ مستطيل الشكل تعلوه حنية نصف كروية قائمة على أربع حطات من المقرنصات الشائعة في مباني الماليك . ويتوسط الواجهة فيما بين عتب الباب والمقرنصات تربيعة النقيض في وسطها جامة تحتشد حولها تكوينات هندسية من فروع متقاطعة ومجدولة تتخللها زهرة الزنبق . وعتب الباب مزئف من سنجات على شكل زهرة الزنبق ، يتناوب فيها اللونان الأبيض والأسود ، على مثال سنجات سائر الآثار المملوكية بطنابلس . أما المثانة فتعتبر من أفخم مآذن طنابلس في عصر الماليك ، فهي برج مربع الشكل يدور حوله عند منتصفه أفريز أفقي بارز ومسطح ، وتنتهي المثانة من أعلى بشرفة مكعبة الشكل بارزة عن بناء برج المثانة ، وترتكز هذه الشرفة على صف من المقرنصات الجميلة ، القائمة على أربعة أعمدة في الأركان ، تيجانها من النوع الاسلامي المقرنص . ويتوسط كل وجه من وجوه الشرفة العليا نافذة توأمية يقرم عقداها على عمود مركزي مشترك . ويتوج هذا الطابق جوهر مشمن الشكل يكتشفه في الأركان الأربعة قبيبات زخرفية جميلة . وينتهي الجوسق من أعلاه بغطاء مخروطي .

وعلى الجدار الواقع بين فتحة الباب نقش - مسجل فيه مرسوم ، أصدره السلطان المريني شيخ سنة ٨٢٦ هـ .

٥ - مسجد الدباغين :

هو مسجد صغير يقع على الضفة اليسرى من نهر قاديشا بجوار الحسار الحديد ، ويتميز هذا المسجد بمثلثته المئنة التي تنتهي من أعلى بالطابق المربع

(١) عبد القى القابلي ، الرحلة الطرابلسية ، عن سورتهام من ١٠٥

(٢) Sobenheim, op. cit. p. 105

البارز : وبقيته المضلعة . ويعلم مدخل هذا المسجد لوحتان من الحجر عليهما نقش كتابي عبارة عن مرسوم صادر من السلطان قايتباي في ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٨٨٢ هـ (١٤٤٧ م) عند زيارته لطرابلس قادما من بعلبك . يأمر فيه بإبطال المكوس المفروضة على جماعة الدباغين (١) . ولقد جدد هذا المسجد سنة ٩١٢ هـ في عهد السلطان قنصوه الغوري ، جده شيخ الدباغين بطرابلس

٦ - زاوية أرغون شاه :

يطلق عليها أهل طرابلس زاوية الغنشا ، ويقع قريبا من المدرسة السقرقية والخانونية في الطرف الغربي من طرابلس . ولا نعرف تاريخ بناء هذا المسجد على وجه التحديد ، ولكن أسلوب البناء يدل على أنه أقيم قرب نهاية دولة المماليك الشراكسة ، أي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي . ونلاحظ في مثانة هذا المسجد بدء ظهور التأثيرات المعمارية التركية ، فهي مثانة أسطوانية الشكل تنهى في أعلاها بست حطات من المقرنصات تحمل شرفة ذات عشرة ضلوع تزدان بزخارف هندسية وقواريقات رائعة . وتختلف كل حشرة عن غيرها في هذه الضلوع العشرة للشرفة . وعلى مدخل هذا المسجد نقش كتابي يتضمن مرسوما صادرا من السلطان قايتباي في ١٥ جمادى الآخرة سنة ٨٨٠ هـ (١١ أكتوبر سنة ١٤٧٥ م) في نيابة أردمر الأشرى ، يأمر فيه بحماية زراع أراضي الوقف للمسجد المذكور وتسليمها الى السيد نور الدين الأدهم الحسيني . وقد جدد بناء هذا المسجد بعد أن تهدم الجانب الجنوبي منه ، ولكن هذا التجديد لم يمس الواجهة الشرقية على الإطلاق .

٧ - مسجد الأويصة :

يقع بالقرب من مسجد عبد الواحد المكناسي ، بناه عبد الحى الأويصي سنة ٨٦٥ هـ ويتميز هذا المسجد بقيته الوسطى الكبرى التي تمهد لظهور

(١) أرجع الى نص هذا النقش في كتاب Sobernheim, op. cit. p. 131

القباب التركية .. وقد جددت مثذنة هذا المسجد في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني سنة ٩٤١ هـ (١) .

(ب) المدارس :

١ - المدرسة القرطانية :

يحيط بالمسجد الجامع المنصوري عدد من المدارس المملوكية لا يقل عددها عن ست مدارس أهمها وأجلها المدرسة القرطانية ، أما الخمسة الأخرى فمجموعة حول البوابة الشمالية للجامع المذكور باستثناء المدرسة النورية التي تقع على مسافة قصيرة شرق المسجد .

وتعتبر المدرسة القرطانية أهم آثار طرابلس الاسلامية على الإطلاق ، وتقع لصق الجامع الكبير من الجهة الجنوبية الشرقية . وينسب بناؤها الى الأمير سيف الدين قرطاي بن عبد الله الناصري الذي أقام منبر الجامع الكبير سنة ٧٢٦ هـ ، على الرغم من اختفاء الكتابة التاريخية التي كانت منحوتة على جدارها القبلي (٢) .

وينكر الأستاذ سوبر نهام وجود آثار لهذه المدرسة في الوقت الحاضر فيقول « L'école qu'il y a fondée n'existe plus » (٣) ويسمى البناء القائم لصق الجدار الشرقي للجامع المنصوري بالمدرسة الشمسية (٤) ، ويخلط بين هذه المدرسة والمدرسة القرطانية ، اذ ينسب الى المدرسة الشمسية المنشورات والمراسيم السلطانية المنقوشة على الجدار القبلي للمدرسة القرطانية .

(١) الى جانب المساجد المذكورة يوجد عدد كبير من المساجد التي أنشئت في أواخر عصر دولة المماليك الشراكسة وأهمها مسجد التوبة الذي أنشئ في هذا العصر وجدد في عهد السلطان العثماني أحمد الأول سنة ١٠٢١ هـ ، ويمتاز بقيته المتفصلة ، ومنها مسجد الخيام الذي أنشئ على ما يظهر في أواخر القرن العاشر الهجري ، وتاريخ بنائه غير معروف على وجه الدقة ، ومنها المسجد المعلق الذي أنشئ في عصر السلطان سليمان القانوني سنة ٩٦٧

(٢) محمد كرد علي خطط الشام ج ٦ ص ١٢٨

(٣) Sobornheim, op. cit p. 55

(٤) نفس المرجع ص ٦١ - ٦٢

والبواقع أن المدرسة المسماة بالشمسية هي التي تقع الى يسار الداخل الى المسجد الكبير ، وتعتبر من ملحقات هذا الجامع ، وإن كانت قد أقيمت ضريحاً لمشئها شمس الدين المرادى ، سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) تقريباً ، ولهذا المدرسة منظره تطل على المدخل الى الجامع المنصوري الكبير ، يعلوها عقد ذو مساند متصلة ، وقد رأينا مثل هذا العقد في مثدنة جامع سيف الدين طينال بطرابلس ، وفي مصر نأخذ من هذه العقود نراها مثله في أحد عقود بوابة الفتوح بالقاهرة وفي عقد مدخل مسجد الظاهر بيبرس وفي عقد مدخل خانقاه بيبرس الخاشنكير وفي نافذة مثدنة سنجر الخاوي كما نجدتها أيضا في أحد العقود المنسوبة إلى الظاهر بيبرس بقلعة صيدا البحرية ، وهناك من الأثريين من يرجع هذا النوع من العقود الى الصليبيين (١)، وهو افتراء واضح .

ومدخل هذه المدرسة الشمسية سد بالبناء واتخذت فيها مخازن ومرافق أخرى ، ولم يبق من واجهتها سوى النافذة المعقودة ذات الرسائد التي تحدثنا عنها .

ونعود مرة ثانية الى الحديث عن المدرسة القرطائية ، وبوابتها تعتبر من أروع أمثلة البرابات المملوكية ، إذ تنطق خطوطها بما تتميز به من جمال ودقة لا نظير لها ، فهي حلقة متصلة مثزنة الأجزاء ، وتعتبر عن ارتفاع وتوازن . ويتوسط عتب الباب لوحة عليها نقش كتابي نصه (بسم الله الرحمن الرحيم ، ان المتقين في جنات وعيون ، أدخلوها بسلام آمنين ، ونزعنا ما في صدورهم من غل اخرانا على سرر متقابلين) (٢) .

ويعلو هذا الباب عقد مخفف للضغط تتعاشق فيه منجحات من الرخام سوداء وبضياء على التعاقب . ويعلو هذا العقد تربيعة من الفسيفساء تتوسطها جامه سوداء تخرج منها أشربة أربعة مجدولة ، تمتد حول التربيعة . ثم يعلو ذلك ثلاثة طوابق من المقرنصات ، تنتهي من أعلى بحوكة نصف كروية عقدها

(١) تقرير بعثة اليونسكو الى لبنان ص ١٥ ، Bruce Candé op, cit. p. 34,49 .

(٢) لم يرد هذا النص بين النصوص التي نشرها سورنهام في كتابه عن نقش بطرابلس .

منكسر : يحيط بها عقد بارز يلور به صفان من دالات متصلة على شكل زجراج . وعلى جانبي المدخل عمودان يعتقد الأستاذ بروس كندى أنهما من النوع الأفريقي (١) ، ويفتح في الجدار الشمالي للمدرسة نوافذ ، تكسرها زخارف متشابكة . أما محراب المدرسة فينطق بوضوح عن الفكرة الزخرفية والهندسية التي طبقها المهندس : إذ يعبر عن تناسب تام في تكرير العناصر الزخرفية بما يحتويه من فيضاء ملونة . ويكسو النصف الأدنى من جدار المحراب وزرات من الرخام الملون ، وأرضية المدرسة من التيفيساء المزين تولف تكوينات هندسية رائعة تشبه الى حد كبير التيفيساء التي تكسو حصن جامع السلطان حسن بالقاهرة وغيره من المساجد والمدارس المملوكية .

وتنقسم المدرسة من حيث التصميم الى قسمين : الرواق الشمالي وأرضيته أقل ارتفاعاً من أرضية المصلى . ويتوسط هذا الرواق الشمالي حوض مربع ، يقابل مدخل المدرسة ، بداخله نافورة . ويحيط بالحوض قناة تجري فيها المياه الحارية من الحوض ، وبأعلى هذا الحوض قبة . أما الرواق الآخر فتطوره أمام المحراب قبة قائمة على مقرنصات مثلية ، وتفتح في الجدار القبلي أربع نوافذ متشابكة . عتب كل منها من الخارج يحتوي على ثلاث لوحات ، تعشدها زخارف هندسية بارزة بروزاً طفيفاً ، ويعلو الأعتاب عقود مخففة لتضغط سنجاتها متعاشقة سوداء وبيضاء على الأعتاب . وطبقات هذه العقود تزخر بالكتابات القرآنية . وتتصل المدرسة القرطانية بالجامع الكبير عن طريق قنطرة ملتفها معقود بقبوات متعارضة ، ويعلو مدخل الباب المؤدى للجامع نافذتان مرتفعتان وظيفتهما ادخال الضوء الى الطريق الضيق الواقع خلف المدرسة . ويزدان الجدار القبلي للمدرسة بمراسيم سلطانية منحورة في لوحات مرصعة في الجدران ، أولها نقش كتابي يقع بين النافذة الأولى والثانية من هذا الجدار . وهو عبارة عن مرسوم أصدره الأشرف برسبای في مثل رمضان سنة ٨٢٦ هـ يأمر فيه بإبطال المكوس الخاصة بحمل البريد . والمنشور الثاني منقوش على لوح حجري يرصع جدار بيت حديث البناء ، قبالة مدخل

الجامع من الجهة الشرقية ، وهو مرسوم صادر من ديوان الحشوش بتاريخ
مئيل شعبان ٨٥١ هـ ، بإبطال الضرائب المفروضة على الثياب والدخان .
وهناك غير هذين النقشين نقوش أخرى كثيرة يكتظ بها الحداد القبلي
للمدرسة القرطابية ، نشرها الأستاذ سبرينهايم (١) .

٢ - المدارس المحيطة بالجامع :

ذكرنا فيما سبق أنه يحيط بالجامع المنصوري ست مدارس ، وقد تحدثنا
عن مدرستين احدهما القرطابية والثانية الشمسية . والمدرسة الثالثة تقع
الى يمين الداخل الى الجامع المنصوري من جهة الشمال ، وهي مدرسة
مجهزلة الاسم ولكن أسلوب بنائها يبين أنها من مدارس عصر دولة
المماليك الشراكسة وواجهة المدخل عبارة عن قطاع فسيح مجوف على شكل
مستطيل ينتهي من أعلى بجوفة مقوسة مكورة بالفيضاء الرخامية الملوثة ،
وتزدان بزخرفة هندسية أساسها نجمة ذات عشرة رؤوس ، تتشعب من رؤوسها
خطوط متقاطعة فيما بينها ، وهذه الجوفة تشبه الحروفات التي تعلو محاريب
المسجد المملوكية . وتتوهم هذه الجوفة على مقرنصات غاية في الروعة
والجمال ، ويعلم البوابة افريز أفقى من دالات متصلة على شكل زجراج
بارز يحيط بها من أعلى ، ثم يدور على جانبي البوابة الى أن يصل الى الأرض .
ويود الواجهة مظهر زخرفى بسيط ناشئ من تناوب المداميك السوداء
مع المداميك البيضاء (٢) .

ومن بين المدارس الثلاثة الأخرى المحيطة بالجامع الكبير مدرستان
تقعان قبالة الباب الشمالى للجامع المنصوري على الصف الأيسر من الطريق ،
الشرقية منهما هي المدرسة الناصرية ، وهي مدرسة صغيرة نسبياً ، وبوابتها
قطاع مستطيل مفرغ في الحداد ، ينتهي من أعلى بجوفة مقوسة نصف كروية
عاطلة من الزخرفة ، تترجم على صف من المقرنصات ، تحته دائرة مستديرة

(١) Sobornheim, op. cit. p. 62-69

(٢) Bruce Condé, op. cit. p. 44.

بداخلها نقش كتابي نصه (عز لمولانا السلطان الملك الناصر) ، وتزدان الواجهة
بافريز بارز من الدالات المتصلة كما تزدان بالمداميك الملونة وتاريخ بناء
هذه المدرسة يتراوح بين عامي ٦٩٣ و ٧٤١ هـ (١٢٩٣ - ١٣٤٠ م) .

أما المدرسة المجاورة لها من الغرب فهي المعروفة بمدرسة الخيرية حسن ،
وقد أخطأ سوبرنهايم في تحديد موقعها على خريطته (١) . ويرجع تاريخ
بنائها الى أوائل القرن الثامن الهجري (بعد سنة ٧٠٩ هـ) . وبوابتها عبارة عن
قطاع مستطيل الشكل مجوف ، ينتهي من أعلى بمقد منكمسر يتناوب في
سجانه المتعاشقة اللون الأبيض والأسود . ويحيط بالبوابة من أعلى ومن
الجانبين حتى مستوى الأرض افريز من الزخرفة على شكل مقرنصات
مسطحة متصلة ، ويتوسط كل من الجدار الأيمن والأيسر للبوابة نافذتان ،
عقداهما نصف دائريان ، يتناوب في سجاتهما اللونان التقليديان الأبيض والأسود
ويتوسط البوابة ، بين العقد والباب ، لوحة مربعة مسجل عليها وقية نصها
(بسم الله الرحمن الرحيم ، وقفت جهة المرحوم قطلو المصنعة والمعصرة
والربع فرق المعصرة ، وخمس قراريط وربيع بطاحون الداودية والسندمية ،
بأرض كفر قاهل ، والبستان ظاهر طرابلس وثلاث قراريط ونصف بسوق
أسنمر ، وثلاث الدير يعرف بأرض أصنن ، ومسكة زيتون والقاعة
والبحرة والطبقة جوار المدرسة ونصف طاحون الحديدية بعردات ، وكرم
زيتون في بطرام ، وطبقة ومخزن بقيسارية الأفرنج) (٢) .

أما المدرسة السابعة من مجموعة مدارس الجامع فهي المدرسة الثرية ،
وتقع شرق المدرسة الناصرية على الناصية الأخرى من الشارع المؤدى الى
السوق الرئيسي بطرابلس ، أسسها نائب طرابلس الأمير نور الدين سنة ٨٧٣٣ هـ
وبوابة هذه المدرسة من أحمل بوابات المدارس المملوكية في طرابلس .

(١) Sobernheim, op. cit. p. 37.

(٢) نفس المرجع ص ١٣٦

تقع على الضفة اليسرى من نهر قاديشا بالقرب من الحصر العتيق ، واسم منشئ هذه المدرسة مسجل على شريط من الكتانية النسخية بقطع واجهة المدرسة أفقياً ، على ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف . ويمتد هذا الشريط في مديناك قائم بذاته من يمين القطاع المحوّل للبوابة الى يساره . ونقرأ في هذا الشريط النص الآتي : (بسم الله الرحمن الرحيم ، أوقف هذه المدرسة المباركة العبد الفقير الى الله تعالى عيسى بن عمر البرطاسي عفا الله عنه ، على المشتغلين بالعلم الشريف على مذهب الامام الشافعي ، واقامة الجمع والصلوات المكتوبة ، وشرط أن لا يرسم فيها على أحد ولا يسكنه من لا له (الحق في ذلك) (١) . وأما تاريخ الانشاء فلم يرد ذكره ، ويظهر من أسلوب بنائها وزخارفها أنها أقيمت في أواخر عصر دولة المماليك البحرية .

وأهم ما تتميز به هذه المدرسة واجهتها المبنية بحجارة داكنة اللون ، والجوافة العليا القائمة على المقرنصات والتي تعد من أجمل ما أبدعه الفنانون في عصر المماليك . ونلاحظ التشابه الكبير بين هذه الواجهة وواجهة المدرسة القرطائية . ويعلو العتب أربع حشوات من الزخرفة الهندسية القائمة على الخطوط المتقاطعة في زوايا قائمة . ويبدو أن المدرسة كانت قد تعرضت لأضرار جسيمة بسبب سيل جارف حدث سنة ١٩٥٥ . وطغى على طابعها الذاتي وقد قامت ادارة الآثار اللبنانية بترميمها تحت اشراف الأمير موريس شهاب . وتمتاز المدرسة بقبابها الثلاثة نصف الكروية ، وأعمها القبة الوسطى القائمة على جوفات مثثة تغطيها ست حطات من المقرنصات . ويغلب على الظن أن هذه القبة أضيفت في أواخر عصر دولة المماليك الشراكسة لشبهها الكبير بالقباب العثمانية . ومحراب المدرسة يعتبر أجمل محاريب المدارس المملوكية في لبنان على الاطلاق ، اذ تكسوه فيفساء مذهبة قائمة على تكوينات زخرفية من العناصر النباتية والهندسية ذات لون فروزى على أرضية مذهبة (٢) والمئذنة مربعة الشكل شأنها في ذلك شأن المآذن الطرابلية التي ترجع الى عصر

(١) نفس المرجع ص ١٢٨

(٢) Bruce Candé, op. cit p. 124

الماليك . وتزدان واجهتها الغربية بنافذة توأمية ذات عقدين متجاوزين منكسرين عند الرأس ، يستند جانبهما المشترك على منكب قائم على عمود صغير ، وتتناوب في هذين العقدين السنجات البيضاء والسوداء ، ويذكرنا هذان العقدان بالعقود الخلافة بقرطبة وطيطة . ويحيط بالعقدين اطار مستطيل يحصر النافذة في نطاق غائر . ويغلب على الظن أن مهندس هذه المئذنة أندلسي الأصل ، هاجر من مخطط رأسه الى طرابلس وساهم في بناء آثارها ، وسجل أصله الأندلسي المغربي على زخرفة هذين العقدين التوأمين ، اذ جمع فيها بين التقاليد الأموية الأندلسية الشائعة في الأندلس وهي العقود المتجاوزة والتي تشبه حدود الفرس والتي تتناوب فيها السنجات الملونة ، وبين التقاليد المغربية الشائعة في الطراز الموحدى ، وقوامها العقود المتجاوزة المنكسرة والثوائف التوئية التي تحيط بها طرر مستطيلة غائرة في البناء . والواقع أن عصر الماليك هو العصر الذي تسربت فيه التأثيرات الأندلسية الى مصر والشام ذلك لأنه العصر الذي توثقت فيه عرى الصداقة بين دولة الماليك في مصر ودول أسبانيا المسيحية ، على أثر انتصار الماليك على التار في عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ ، وانتصار الاشرف خليل على بقايا الصليبيين في الشام وطرده لهم منها الى قبرص ورودىس ، وقد أكسب هذان الانتصاران سلاطين مصر هبة دول أوروبا واسبانيا بالذات ، وهنا بدأت علاقات الصداقة بين مصر وأسبانيا تعمل عملها ، فقد تبادلت الدولتان السفارات والرسائل الودية والهدايا السنية . كذلك كانت العلاقة طيبة بين ملوك بنى الأحمر بغرناطة وسلاطين مصر ، وكان من نتائج ذلك أن زار بلاد الشام ومصر عدد كبير من أهل غرناطة سواء للتعلم أو للتدريس ، وقد أقام فيها من طابت له الإقامة ، ومن أمثال هؤلاء عبد الواحد المكناسي الذي أقام مسجدا بطرابلس ، وسيدى أحمد بن عمر أبو العباس المرسى نزىل الاسكندرية وغيرهما . وكان لهذه العلاقات أثرها الكبير في نفاذ التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية والشامية في عصر الماليك (١) . وسرى في طرابلس تأثيرا أندلسيا ثالثا في المدرسة المعروفة بالطريشية .

(١) أنظر مقال : بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الاسلامية ، المجلد ١٢ ، ديسمبر ١٩٥٧ ، ص ٨٨ - ٩٩ وكتايب : المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٩ - ٣١

٤ - المدرسة الزيدية :

تقع على الضفة اليمنى من نهر قاديشا ، وتعتبر أقدم مدارس طرابلس
اذ أنشأها الأمير عز الدين أيك الموصلى لتكون مسجدا سنة ٦٩٧ هـ
(١٢٩٨ م) ، وتاريخ الانشاء مسجل على لوحة في جدار المدرسة الواقع
على يمين المداخل ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم ، أنشأ هذا المسجد
المبارك ، الفقير الى الله أيك الموصلى . عفا الله عنه في تاريخ عشرين جمادى
الآخر سنة سبع وتسعين وستائة) . وأيك (١) المذكور تولى نيابة طرابلس
من ٦٩٤ هـ الى تاريخ وفاته سنة ٦٩٨ هـ . ثم أضيف الى هذا المسجد مصل
صغير المساحة سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٨ م) ومسجل هذا الانشاء على طيلة عقد
المدخل بأعلى عتب الباب مباطرة ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء
هذه الزاوية المباركة العبد الفقير الى الله تعالى سيف الدين كرتاي السيفي ،
وذلك في تاريخ شهر شوال سنة ثمان وثلاثين وسبعائة) ونلاحظ أن عتب
الباب يردان بثلاث حشرات مكسوة بتكوينات هندسية ، والحشرة الوسطى
أصغر من الحشرتين الأخرتين وبوابة المدرسة الزيدية قطاع مستطيل محرف
ينتهي من أعلى بحافة نصف كروية قائمة على مقرنصين مثلثين ، وعقد البوابة
يتلمج منبتاه في مداмик عضادتي البوابة ، وهي عاطلة تماما من الزخرفة
باستثناء زخرفة عتب الباب . ويرغم الأستاذ بروس كندى أن هذه البوابة
صلبية الطراز (٢) .

٥ - المدرسة السقرية :

وتقع في طرف المدينة الجنوبي الغربي ، بالقرب من مسجد أرغون شاه
بناها الأمير سيف الدين أقطرق ، حاجب نيابة طرابلس لتكون مسجدا
وضريحا وذلك سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) . وتاريخ انشاء المدرسة مسجل على
جدار واجهتها الجنوبية الشرقية في شريط يمتد على كل من جانبي البوابة

(١) Sobernheim, op. cit. p. 83

(٢) Bruce Condé, op. cit. p. 118

ويتضمن هذا الشريط الكتاني تاريخ البناء ، والعقارات الموقوفة عليها ، ونلاحظ أنه يتوسط كل زوج من نوافذ الواجهة تحت صف الكتابة مباشرة رنك المنشيء وهو عبارة عن دائرة يتوسطها حزام أفقي بداخله سيف يتجه من أعلى الجانب الأيسر الى أدنى الجانب الأيمن . وتكسر عتبات النوافذ زخارف هندسية من النوع الشائع في العصر التركي . ويعلو المضريح قبة مضلعة غاية في الجمال ، تفرم على رقبة مشمعة قائمة بدورها على قاعة مربعة في أركانها جوفات مقوسة مزينة بزخارف نباتية قوامها المزاوح النخيلية ، ويتدلى تحت كل جوفة مقرنصات من ثلاث حطات .

٦ - المدرسة الحاقونية :

تقع وجهها لوجه أمام المدرسة السقرقية ، بنها أرغون خاتون بالاشتراك مع زوجها عز الدين أيدير الأشرقي نائب طرابلس سنة ٧٧٥ هـ . وتاريخ انشاء هذه المدرسة وأسماء العقارات الموقوفة وشروط السيدة الواقعة مسجلة جميعاً بأعلى المدخل ، ونص النقش ما يلي : (بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد أنشأ هذا المكان المبارك مولانا المقر الأشرقي العالي المارلوي المخلدوي الكافلي العزى أيدير الأشرقي ملك الأمراء أعز الله أنصاره في شركة آدره الكريمة الجهة ، المصونة ، أرغون تغمدها الله برحمته حسب وصيتها المتقدمة ..) ويلي ذلك الوقفية وتاريخها ٢٣ شعبان سنة ٧٧٣ هـ ثم اسم منولى البناء الأمير جمال الدين يوسف ابن العزى غزان السيفي ، ثم تاريخ الفراغ من البناء سنة ٧٧٥ هـ (١) . وعز الدين أيدير المذكور هو عبد الله الأنوكي الدوادار نائب طرابلس فيما بين ٧٧٣ هـ ، ٧٧٦ هـ . وعلى الرغم من تآكل كسوة جدران المدرسة فائنا نشاهد رنك الكأس على جانبي عتب الدافذة .

٧ - المدرسة الظاهرية :

هي مدرسة صغيرة بباب الحديد جنوب غربي المدرسة البرطاسية ، وصميت بالظاهرية لأن الذي بناها هو الأمير سيف الدين تغرى برمش

(١) Sobernheim, op. cit. p. 116

الظاهرى بن أحمد الهنسى التركمانى الأمير أخور الكبير فى عهد السلطان
الظاهر برقوق ، لدفن ولديه سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٦ م) . ومدخل المدرسة
مسدود البرم ، ولكن الواجهة بكتابتها النسخية مازال ظاهرة . وتاريخ
انشاء المدرسة مسجل على عتب المدخل فى خمسة أسطر من الكتابة النسخية
ونص الكتابة ما يلى : (بسم الله الرحمن الرحيم ، المال والبنون زينة الحياة
الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا . قوله الحق
وله الملك . عمر هذا المكان المبارك المقر الشريفى تغرى برمش الظاهرى
أعز الله أنصاره مسجدا لله تعالى وقربة لدفن ولديه الأخوين الشقيقين
السعيدين الشهيدين سيدى الأمير قاتمر وسيدى أمير تغرى برمدى الطفلين
المتحصين (١) على الدنيا ، المتحابين فى دار الدنيا ، والمجاورين (٢) والمجاورين
فى دار الآخرة تغمدهما الله برحمته ، وأسكنهما فسيح جنته ، وجمع بينهما وبين
والديهما فى دار كرامة ، وذلك فى ثالث شهر الله المحرم سنة تسع وتسعين ومبعمائة .
رحم الله من ترحم عليهما) (٣) ونلاحظ فى أول السطر الخامس نقش
يمثل رنك الساق وهو عبارة عن صورة كأسين مخمورين فى ثلثى الرنك .

وبالمدرسة محراب ، الجزء الأدنى من جوفته مغطى بأشرطة رأسية
من الرخام الملون بينما تكسو الحنية العليا زخرفة من النيسفاء قوامها القزوع
المتداخلة .

ويمكننا أن نميز فيها اللون الأحمر والأبيض والفيروزى والأسود ويقوم
عقد المحراب على عمودين ، يزدان بدناهما بقنوت معصورة .

٨ - المدرسة الطويشية :

تقع بالقرب من منطقة الجامع الكبير ، وتشتمل على ضريح مؤسسها
الأمير سيف الدين الطويشى التوفى سنة ٨٧٥ هـ (١٤٧١ م) . وتمتاز هذه
لمدرسة بظاهرتين :

(١) قرأنا سورتهمايم « المتحصين » .

(٢) كلمة زائدة لم يكملها الخطاط لانهاء السطر فأعاد كتابتها فى السطر الجديد .

(٣) Sobernheim, op. cit. p. 122

١ - البوابة الرائعة التي تعرض مثالا من أروع أمثلة المقرنصات المملوكية ، وبأعلاها جرفة نصف كروية على شكل محارة تحتشد فيها زخرفة مشعة في أربع مجموعات . وعقد البوابة من النوع المفصص بفصوص نصف دائرية وأخرى مثلثة صغيرة على التعاقب ، على النحو الذي نشأه في العقود الأندلسية المغربية في عصر المرحدين ، مما يجعلنا نرجع لتحليل بعض التأثيرات المغربية الأندلسية الى عمائر المالك في بلاد الشام .

ويحيط بالبوابة اطار بارز على شكل مستطيل يترج أعلى العقد ، ثم يمتد طرفاه أفقيا بطول جدار الواجهة يمينا ويسارا .

٢ - النافذة ذات العقد المزدوج بالطابق الثاني (على يسار الواجهة) ، فعقد هذه النافذة مفصصان ينتهيان من أعلى بمحوتين نصف كرويتين تكسوها زخرفة على شكل محارة ، ويحيط بهما اطار مستطيل الشكل . ويرتكز العقدان من الجانبين على عمودين بهما قنوات معصورة ويذكرنا العقدان بالعقود الأندلسية . أما قبة الضريح فهي مفصصة (متعددة الفصوص) ، يتناوب في محيط قاعدتها الفصوص نصف الدائرية والفصوص المثلثة .

٩ - المدرسة العجمية :

تقع بالقرب من قلعة صنجيل ، أسسها هي والربة المملوكة بها الحاج شمس الدين محمد السكر في رمضان سنة ٧٦٦ هـ . واسم هذا الرجل نراه مجلا على منبر بمدينة دمياط سنة ٧٧١ هـ . وتاريخ المدرسة العجمية مسجل على عتب مدخلها ، ونصه : (أمر بإنشاء هذه التربة المباركة العبد الفقير الى الله تعالى محمد السكر عفا الله عنه . وكان الفراغ منها في منهل رمضان سنة ست وستين وسبعمائة) .

ما عمره بطرابلس « بعض القلعة » وأقام أبراجا « (١) واليه تنسب بوابة القلعة الحالية بعقدتها الذي يتناوب في سنجاته اللونان الأسود والأبيض على التعاقب ، كما ينسب إليه كثير من أسوارها وأبراجها وممراتها (٢) .

والمندخل على شكل مرفق يصل الى باب ثان ، يعلوه لوحة مسجل عليها بالخط النسخي منشور عسكري صادر من السلطان الأشرف شعبان بن الناصر محمد بتاريخ ٧٤٦ هـ يتضمن بيانا بالمرأية الحربية . ويبدو أن جانباً كبيراً من القلعة قد تخرّب في عصر دولة المماليك الشراكسة ، فرمت سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢١ م) بأمر السلطان سليمان القانوني بعد زيارته للشام ، ثم عمرت بعض أجزاء منها بعد ذلك بقرن في عهد يوسف باشا سينا .

وبناء القلعة خليط من أساليب مختلفة منها الصليبي ومنها المملوكي ومنها العثماني ، على أن الأجزاء الإسلامية يمكن تمييزها بسهولة عن الأجزاء المسيحية ، ونلاحظ أن أغلب أبراج الجانب الشرقي يرجع الى عصر الصليبيين وما زالت الحفائر تجرى بأرض القلعة لدراسة نظام بنائها دراسة علمية منظمة .

٢ - أبراج المينا :

رأى نواب السلطنة بطرابلس في عصر دولة المماليك البحرية ضرورة تحصين ميناء طرابلس وذلك بإقامة أبراج ممتدة على ساحل شبه جزيرة المينا ، لتأليف خط دفاعي قوي أمام أي اعتداء صليبي موجه من جزيرة قبرص ورودس اللتين أصبحتا قاعدة للاستتارية والدأوية بعد تحرير الشام من بقايا الصليبيين في عصر السلطان الأشرف خليل ، فان تحرير الشام نهائياً من الصليبيين لم يكن يعني أن الفكرة الصليبية نفسها قد وئدت ، وأن منطقة الشرق الأدنى لم تعد ميداناً لحرب صليبية جديدة ، فقد ظلت فكرة الحروب الصليبية نحو قرن من الزمان بعد سقوط عكا آخر معقل صليبي في الشام ، إذ أن البابوية ودعاتها لم ترض بالنهاية المؤلمة التي انتهت اليها الحروب

(١) نص انويري عن سورينهايم ص ٤٧

(٢) Bruce Condé, op. cit. p. 22

الصليبية ، واعتبرت دولة المماليك في مصر والشام السبب المباشر للكرارث التي لحقت بالصلبيين ، فحاولت البابوية أن تتدخل دينيا لدى الدول الأوروبية لقطع كل علاقاتها التجارية مع دولة المماليك في مصر حتى تقضي بذلك على أهم مواردها المالية ، فحرمت بيع أى شيء للعرب قايلاً لأن يكون أداة لتسلح المسلمين ، كالخشب ، والحديد ، وهما مادتان لازمتان لصناعة السفن وآلات الحرب (١) غير أن هذه المحاولات لم تلبث أن باءت بالفشل لأن الدول والجمهوريات الأوروبية التي كانت تتعامل مع مصر لم تكن تستطيع الاستغناء عن حاصلات الشرق التي تأتي عن طريق واحد هو طريق دولة المماليك . ولم يكن هناك غير سيل واحد هو الاغارة على شواطئ مصر والشام ، والرصد في البحر للسفن التجارية الاسلامية . وشهد القرن الرابع عشر عدة إغارات عنيفة قامت بها الأساطيل الصليبية على موانئ مصر والشام (٢) .

وكان تحصين ميناء طرابلس الذي خربته عساكر قلاوون وسوت مباينة بالأرض يعنى إنشاء مراكز دفاعية على الميناء على أبعاد متفاوتة ، ولم تكن هذه المراكز تعدو أبراجاً حصينة مزودة بالجنود والسلاح وآلات الحرب ، ولا نعرف على وجه الدقة تاريخ إنشاء هذه الأبراج ، وكل ما نعرفه في هذا السيل أن طرابلس زودت بسبعة أبراج لم يبق منها في الوقت الحاضر سوى آثار أربعة فقط . ويمكننا مع ذلك تحديد مواقع هذه الأبراج السبعة على خريطة لطرابلس ، فقد كانت تمتد من مصب نهر أبي على شرقاً إلى رأس شبه جزيرة المينا غرباً . هذه الأبراج هي كما يلي : برج الشيخ عفان وبرج السباع وبرج رأس النهر وبرج المغاربة وبرج السراية وبرج المشق وبرج أبي العدس ، ولم يبق من هذه الأبراج السبعة سوى أبراج السباع ورأس النهر والشيخ عفان والسراية .

(١) Heyd, Histoire du Commerce du Levant, t. II, Leipzig, 1885, p. 23-30

(٢) أنظر سيد عاشور ، تبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٤٤ نفس المؤلف ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٦٨ - ٧٥ كتاب عن تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاملاى ، الاسكندرية ١٩٦١ ص ٨٥

(١) برج السباع :

هو أهم هذه الأبراج جميعاً ، لأنه ما يزال يحتفظ بصورته الأولى ، كما أنه يعتبر من أجل الأبنية الحربية التي وصلت إليها ، ويقع بين برج السراية وبرج رأس النهر . وقد اختلف المؤرخون في تاريخ بنائه ، فكان برشم يعيل إلى جعل هذا التاريخ في حدود سنة ١٤٠٠ م (٨٠٢ هـ) ، لأن عمارته وزخرفته يجمعان بين الحصانة والوثاقة التي تتجلى في عمارات أسرة قلاوون ، وبين الرشاقة والأناقة التي تنعكس على آثار قايتباي ، وينسب بناء هذا البرج إلى الأمير أيدهش نجاشي أحد ضباط الظاهر برقوق . ويعتمد فان برشم فيما ذهب إليه على نص لأبي المحاسن في المهمل وآخر للسخاوي في الضوء ، فالأول يقول : « وعمر بطرابلس برجا على ساحل البحر الملح لأجل المرابطين ووضع فيه جملة مستكثرة من السلاح ، ووقف عليه أوقافا » والثاني يقول : « وهو صاحب البرج الذي بطرابلس على ساحل البحر » (١).

ويرجع سوفاجيه نسبة برج السباع إلى السلطان قايتباي لشبه الكبير بقاعة استقبال السلطان قايتباي بأعلى قلعة حلب (سنة ١٤٧٥ م) (٢) . ويرى بروس كندى أن هذا البرج أقيم في أواخر القرن الثالث عشر أو بداية الرابع عشر الميلادي ، ثم جدد في أواخر القرن الخامس عشر في أيام قايتباي لمواجهة أي غزو قد يقوم به العثمانيون (٣).

ويضيف الشيخ كامل البابا ، مؤرخ طرابلس الكبير ، أن هذا البرج بني فيما بين عامي ١٤٤١ و ١٤٤٢ م في عهد الأمير جيلان نائب طرابلس ، وأنه وقف على مصالحه وعمارته والمرابطين في البرج خمسة قرى منها : نصف قرية علما ونصف قرية كفرقو التابعة اليوم لزغرتا ، ونصف قرية بينو ، ونصف قرية الحصين من قضاء العلويين اليوم ، ونصف قرية القطين (٤).

(١) Van Berchem, op. cit. p. 122-124

(٢) J. Sauvaget, Notes sur les defenses de la marine de Tripoli, dans Bulletin de la musée de Beyrouth, Paris, Decembre 1938

(٣) Bruce Condé, op. cit. p. 137.

(٤) الشيخ كامل البابا ، من آثار التاريخ الطرابلسي ، ص ٩

أما رأينا فيختلف عن هذه الآراء جميعا (باستثناء رأى كندى) فتعتقد من أسلوب بناء هذا البرج كما سنصفه فيما بعد ، أنه أقيم لأول مرة في طليعة القرن الرابع عشر الميلادى ، ويؤيد ذلك التشابه الكبير بين بوابة البرج بعقدتها وسنجاتها التى يتعاقب فيها اللونان الأبيض والأسود ، وبين بوابة قلعة صنجيل من جهة ، وبوابة مدرسة الخيرية حسن من جهة ثانية . وقد ذكرنا فيما سبق أن بوابة قلعة صنجيل أقيمت سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٧ م) وأن الذى أمر ببنائها هو الأمير اسلندر كرجى نائب طرابلس ، أما مدرسة الخيرية حسن ، فأقيمت هى الأخرى فى نفس هذا العام . كذلك نعتمد على نص ذكره سورنهام نقلا عن النويرى جاء فيه « فوضت نيابة السلطنة الى الأمير سيف الدين اسلندر كرجى المنصورى ، فاستمر بها «أى طرابلس» الى سنة تسع وسبعائة ، وعمر بها حماما عظيما أجمع التجار ممن يحب البلاد أنه ماعمر مثله فى بلد من البلدان ، وعمر قيسارية وطاحونا .. وعمر أيضا بعض القلعة ، وأقام أبراجا » (١) .

كل ذلك يشير اشارة واضحة الى أن برج السباع من بناء اسلندر ، وليس من العقول أن تظل منطقة المينا بطرابلس بدون أبراج دفاعية حتى عصر قايتباى .

وننتقل الآن الى وصف البرج : فهو عبارة عن بناء ضخم مكعب الشكل على أساس مستطيل ٢٨,٥٠ x ٢٠,٥٠ م ، مبني من الأحجار المسنة بطريقة منسقة ، ويتدمج فى سمك البناء أبدان من الأعمدة تظهر على سطح الجدران الخارجية بارزة بروزا طفيفا . ومدخل البرج فى الوجهة الغربية ، ونلاحظ أن البوابة يحدها ومدخلها تبرز قليلا عن بقية جدار الواجهة (٢) ، وتتميز البوابة بعقدتها المنكسر الذى يتناوب فى سنجاته اللونان الأبيض والأسود . وعند تناوب الألوان فى عضادى العقد ثم يستمر فى داخل القطاع المستطيل المخوف للبوابة حتى فتحة الباب ، ويدور

(١) نص نويرى عن سورنهام ص ٩٧

(٢) Sauvaget, op. cit. p. 4

حول السنجات الملونة افريز بارز ، يلتقي مع الطرة المستطبة العليا عند منبى العقد . ويعلو الاطار المنطيل فوق رأسى العقد مباشرة جوفة مستطبة يدور فيها كانت تحدد موضع اللوحة الانشائية . وقد ضاعت هذه اللوحة في الوقت الحاضر . ويعلو الباب عتب كبير عبارة عن لوحة واحدة سمكة من الحجر يعلوها عقد مخفف لضغط سنجاته متعاشقة .

وهناك ظاهرة نلاحظها في هذا البرج كما نلاحظها في أبراج قلعة صنعيل وهي ميل الجدران في الجزء الأدنى من السور نحو الخارج ميلا واضحا ، ولهذا الميل وظيفة نفعية فهو يدفع الأحجار المتناقطة من أعلى الشرفات البارزة في عتب نحو الأعداء . ويعلو بوابة البرج قرب سور المشى كوابيل كانت تدعم شرفات بارزة عددها خمسة . ومدخل البرج يؤدي الى قاعة واسعة يعلوها ست قنوات متعارضة ، تتكئ في الوسط على دعامتين مركزيتين تقعان في نفس محور المدخل (١) ، ثم تتكئ في الجوانب على دعائم ملتصقة بالجدران . وسقف القاعة قليل الارتفاع ، ونلاحظ أن جدار المدخل مزود على جانبي الباب بفتحتين صغيرتين . احدهما تنهى بمنغذين للسهم ، الأيمن منحرف والأيسر معتدل ، والفتحة الثانية تؤدي الى منفذ واحد للمهام ، وجدار الفتحة القبلى محفور عليه شكل عراب . ونلاحظ أن الجدار الشمالى به أربع منافذ للمهام ، والجدار الشرقى به أربعة والجدار الجنوبى به ستة .

ويتوسط القاعة بين الدعامتين فوهة بئر تنجم فيه مياه الأمطار التى تصل اليه من السقف عن طريق قنوات فخارية بداخل البناء . وكانت هذه القاعة تزدان فيما مضى بملونة ، فإن الافريز البارز الممتد ما بين الباب والدعامة المقابلة له ، ما زال يحتفظ في سنجاته بتناوب اللونين الأبيض والأسود . وعلى الجدار القبلى للقاعة رنك مملوكى بين زخارف هندسية وهو رنك الكأس ، وعلى الجدار الغربى الذى يفتح فيه الباب خمسة رنوك تمثل الكأس بعضها مرسوم باللون الأسود والبعض بالوان أخرى .

Ibid. (١)

أما الدرج فيدور في سلك جدار الواجهة الغربية ، ويؤدي الى الطابق العلوى ، ويذكرنا هذا البرج بالطريقة المتبعة في سورية . ويتألف الطابق العلوى من قاعة أكثر تعقيدا من القاعة السفلية ، فهي فسيحة واسعة ، تفتح في جدرانها ثمان جوفات عميقة تعلوها قبوات نصف أسطوانية . وللبرج مسجد صغير به محراب وناقلتين ومنور علوى ، وخزانة لحفظ المصاحف .

وبرج السباع يعتبر من أهم الآثار الاسلامية بطرابلس ، وأجل مثال لفن العمارة الحربية ، بما يتضمنه من عناصر معمارية وزخرفية متنوعة وموزعة جميعا في ايقاع وتصميم متناسق .

٢ - برج الشيخ عفان :

يلي برج السباع من ناحية الغرب ، وقد جدد هذا البرج تجديد شوه معالنه الأثرية .

٣ - برج الراية (أو الديوان) بالينا :

أدمج هذا البرج في مجموعة أبنية حكومية خاصة بالدرك اللبناني ، إلا أن هذه الأبنية نسفت في حوادث ثورة ١٩٥٨ (١) ، فعاد البرج الى الظهور من جديد . وهو برج مربع الشكل يدعم جدرانه أبدان أعمدة مندوجة في داخل البناء على النحو الذى شاهدناه في برج السباع . ولم يبق من هذا البرج سوى الطابق الأدنى ، وقاعته الداخلية تعلوها قبوات متعارضة تقوم على دعائم ملتصقة في الجدران .

٤ - برج واس النهر :

يقع على بعد ١٢٠٠ م شرق برج السباع بالقرب من مصب نهر أبي على وهذا البرج أصغر حجما من برج السباع وأقل ارتفاعا منه ، اذ يتألف من طابق واحد ، وهو على شكل مربع طول ضلعه ١٦ م . ويختلف هذا البرج في بنائه عن الأبراج الأخرى الواقعة على الساحل اللبناني ، اذ يقوم في

(١) Bruce Condé, op. cit. p. 143

أركانها الأربعة ركائز اسطوانية مندمجة في البناء أشبه بأبراج صغيرة ملتصقة بزوايا البرج الكبير ، على نحو ما نشاهده في قلعة حصن الأكراد وبالذات في قلعة قايتباي بالاسكندرية ، وجميع جدران البرج كسيت بحجارة سطوحها ناعمة ، ولكن هذه الكسوة الرقيقة انزعجت من أجزاء كثيرة من هذا البرج خاصة من الركائز الركنية ومن الواجهتين الجنوبية والشرقية .

ومدخل البرج باب منخفض صغير يفتح في الواجهة الجنوبية ، قد جرد تماما من عناصره الزخرفية ، ويتعاقب في مدايبك هذا الباب اللوان الأسود والأبيض ، ويؤدي هذا الباب الى قاعة تعلوها أربع قوالب متعارضة ترتكز عند تلاقيها على دعامة وسطى ، بينما ترتكز في الجوانب الأخرى على الجدران ، وفي الجدار الجنوبي محراب صغير ، وفي داخل سمك الجدار الشرقى درج يؤدي الى سطح البرج (١) .

أما تاريخ بناء هذا البرج فيرجع فيما يظهر الى عصر السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي وذلك للتشابه الكبير بين هذا البرج وبرج قايتباي الذي بناه بالاسكندرية ٨٨٢ هـ (٢) ويرجع سبب اهتمام الأشرف قايتباي بتحصين طرابلس وغيرها من ثغور الساحل الشامى والساحل المصرى (٣) الى اضطراب العلاقات بين دولة المماليك والدولة العثمانية (٤) لدرجة حدوث مصادمات مسلحة بين الطرفين ، وأغلب الظن أن قايتباي أسس هذا البرج عند زيارته لمدينة طرابلس سنة ٨٨٢ هـ ، في رحلة المشهورة الى بلاد الشام وأطراف دولة المماليك .

(١) كان يملو هذا البرج بأعلى المشى شرفات ، على نحو ما نشاهده في برج قايتباي .

(٢) أنظر كتاب تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامى من ٩٢ - ٩٧

(٣) زود قايتباي الاسكندرية بطابية ، وأقام طابية أخرى في رشيد في نفس العام .

(٤) أحمد النيد دراج : سم سلطان والدبلوماسية الدولية ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية

١٩٥٩ من ٢٠٣ - تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامى من ٩٧

(د) الحمامات :

لم يبق من بين الحمامات الكثيرة التي كانت تزخر بها طرابلس في عصر المماليك سوى ثلاثة حمامات هي : حمام النوري وحمام الحاجب وحمام عز الدين .

أما الحمام النوري فيقع بالقرب من الجامع المنصوري الكبير ، وما زال هذا الحمام يؤدي وظيفته في الوقت الحاضر . أقيم سنة ٧٢٣ هـ في نفس الوقت الذي أسست فيه المدرسة النورية ، ويتكون هذا الحمام من غرف تعلوها قبوات وقببات تفتح فيها مضامير (أي فتحات صغيرة لادخال الضوء) مملوذة بقبعان القناني الزجاجية الملونة ، في إحكام صنعة وأجل ترتيب ، وأكبر هذه الغرف ، الغرفة المعروفة بالبيت الساخن ، وتحيط بها مجموعة من المخادع الخاصة ، وتسمى الخلوات ، ومضامير البيت الساخن تؤلف تكويناً زخرفياً رائعاً ، يقوم على عقود نصف دائرية متقاطعة فيما بينها ، تحيط بأطراف القبة . ويشغل الفراغ المركزي زخرفة نجمية الشكل . وأغلب قبابات هذا الحمام من النوع المنصص القائم على جوفات مقوسة في أركانه .

وحمام عز الدين بناه الأمير عز الدين أيلك الموصل سنة ٦٩٤ هـ وكان نائباً لطرابلس فيما بين عامي ٦٩٤ هـ ، ٦٩٨ هـ ، وهي سنة وفاته . وقد دفن هذا الأمير في تربته التي أنشأها لصق حمامه . وما زالت نافذة هذه التربة تحمل نقشاً تاريخياً يسجل تاريخ وفاته ونقش تحته رنك الأمير .

وقد استغل عز الدين أيلك بقايا كنيسة صليبية في بناء حمامه ، فاستخدم نقوشها ورخامها وأحواضها لذلك الغرض . ومدخل الحمام يفتح على الشارع بعقد مدبب ، على رأسه قطعة من إفريز بارز مزدوج ، جوانبه تعبر عن أصله اللاتيني ، وعلى رأس العقد كتابة لاتينية نصها SCS JACOBUS وأغلب الظن أن هذا الجزء من البوابة من بقايا كنيسة سان جاك التي كانت تقوم في نفس هذا المكان أو قريباً منه ، وفي نهاية البوابة يفتح باب عقده نصف دائري منكسر انكساراً طفيفاً . وعلى عتب هذا العقد نحتت صورة « حمل فصحي » بين وردتين ويعلو هذه الصورة النقش الكتابي الآتي ECCE AGNUS DEI

ويتّسم الحمام من الداخل بقبواته ذات المضاوى وغرفة الثلاثة المعروفة بالبراني (وهي غرفة الثياب وتقع عادة بعد المدخل) ، والوسطاني (وهي الغرفة الدافئة وترتفع درجة حرارتها قليلا عن الغرفة السابقة) ، والحامي (وهي البيت الساخن) .

أما حمام الحاجب فقد بناه الأمير سيف الدين اسدمر كرجي المنصوري سنة ٧٠١ هـ بجوار المدرسة الزريقية . ويذكر النويري أنه «عمر بها حماما عظيما أجمع التجار ممن يجوب البلاد أنه ما عمر مثله في بلد من البلدان» وما زال هذا الحمام يؤدي وظيفته حتى اليوم منذ أكثر من ٦٥٠ سنة مضت (١) وعلى عكس ما يزعمه مؤلفو كتاب اليونسكو من أن هذا الحمام قد اندثر ولم يبق منه إلا بقايا قليلة (٢) ، فإن هذا الحمام يعتبر أول الحمامات الثلاثة من حيث احتفاظه بعناصره المعمارية . فهو يشتمل على أكثر من ١٢ قبية وكلها مخرمة بمضاوى مزججة سليمة ، لا أثر فيها لهدم أو لتشويع ، وتندرج في تخطيطه الغرفة الباردة الدافئة فالساخنة ، بينما تتوزع حولها الجلوات الخاصة .

(هـ) الخانات والأسواق :

يحتل المركز العمراني الاقتصادي قلب مدينة طرابلس ، ويشتمل هذا المركز في الخانات والأسواق . أما الخانات فكانت تقع عادة بجوار الحمامات والأسواق ، وأهمها خان المنزل وخان الخياطين وخان المصريين وخان العسكر .

ويعتبر خان المنزل أحمل خانات طرابلس وأهمها ، فقد بناه الأمير سيف الدين اسدمر كرجي المنصوري فيما سبق سنّي ٧٠٠ ، ٧٠٩ هـ ، وواجهه هذا الخان غربية الشكل ، اذ يحف بباطن عقد البوابة المنكسر قطاعات مثثلة الأطراف تؤلف نوعا من الدالات المتصلة البارزة ، وتعتبر

(١) Bruce Condé op. cit. p. 120

(٢) تقرير لجنة اليونسكو إلى لبنان ص ١٥

هذه الزخرفة تطورا لزخرفة الدالات الثابتة في زخرفة بوابات المساجد والمدارس بطرابلس . ويحتل طلبة العقدة جامعة كبيرة حفرت فيها توريقات كثيفة ، أما الظاهرة الغربية في هذا الحان فهي أن عقود نوافلها مقصصة بفصوص من زهرة الزنبق ، تمثل تطورا فريدا في تاريخ عمارة المماليك ، ويعلم النواجه افريز بارز يزدان بصف من المقرنصات الزخرفية المسطحة على شكل ورقة نبات متكررة .

أما خان الخياطين فقد بناه الأمير بدر الدين قبل سنة ٧٤٠ هـ ، وتتصل عمارته بعمارة حمام عز الدين وخان المصريين ، وتؤلف جميعا جانبا هاما من المدينة التجارية . وخان الخياطين أشبه بالدرب مقفل طوله نحو خمسين مترا . ويتميز بوجود صفين من العقود الخائفة . ويقطع الدرب من أعلى عشرة عقود عرضية أشبه بالقناطر ، ولا يغطي هذه العقود سقف ، وفي هذا الحان الذي يقوم في نفس الوقت بوظيفة المصنع والسوق ، كانت تحاك الثياب وتباع بالحملة على التجار (١) لتوزيعها . أما خان المصريين الذي ما يزال يستخدم حتى اليوم مخزنا ، فقد أقيم فيما بين عامي ٧٠٩ هـ و٧٥٦ هـ . وتلدور غرفه حول صحن مركزي مستطيل الشكل ، ويعلم الغرف قبوات نصف أسطوانية عمودية على الصحن .

وخان العسكر يرجع تاريخ بنائه إلى أواخر عصر دولة المماليك البحرية ، وقد استخدمه المماليك ثكنة عسكرية فسمى بذلك الاسم . ويتكون الحان من مجموعتين من البناء تدور كل منهما حول صحن مستطيل بداخله حوض للسقاية ، ويفتح على الصحن أبواب معقودة ، عقودها منكسة من النوع الشائع في عمارة المماليك . وأهم العناصر المعمارية بالحان بواباته بعقودها المدببة ذات السنجات الزنبقية .

وأهم أسواق طرابلس المملوكية سوق الحراج ، ويقع إلى الجنوب الشرقي من شارع الصاغة ، وهو سوق تعلوها قبوات متعارضة ترتكز على

Bruce Coode, op. cit. p. 87 (١)

١٤ عمودا جرانيتية ضخمة ، لاثيجان لها ، ويرجع بعض المؤرخين تاريخ بناء هذا السوق الى عصر المماليك، بينما ينسبه الآخرون الى العصر الصليبي . ويغلب على الظن أن هذا السوق أقيم في مكان كانت تشغله كنيسة ، واستخدمت بعض أعمدتها وعقودها في إقامة هذا السوق .

• • •

وبعد فهذه الدراسة موجزة عن تاريخ وآثار مدينة طرابلس ، قلعة المروبة في الشام، وصرحها المنيع ، وهذه الدراسة أقرب الى أن تكون تعريفا بالمدينة والدور الذي لعبته في العصر الاسلامي، والصلات التاريخية والفنية الوثيقة التي تربطها بمصر ، منذ أن حررتها الجيوش المصرية بقيادة الملك المنصور قلاوون . وشخصية المدينة المملوكية تنطبع في شوارعها الضيقة وأزقتها المتعرجة التي تعلوها الأقواس والخنايا. وفي قباب المدينة ومآذنها الرشيقة ، وفي أسواقها وخاناتها وحماماتها التي ما تزال تقوم بوظائفها حتى اليوم .

المراجع

١ - المراجع العربية القديمة

- ١ - ابن الأثير (عل بن أحمد) : التكمال في التاريف ، ١٢ ج ، بولاق ١٢٩٠ هـ .
- ٢ - ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد) الرحلة ، طبعة بيروت ١٩٦٠
- ٣ - ابن قسرى بردى (أبو المحاسن) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٧ طبعة القاهرة ١٩٣٨
- ٤ - ابن شاهين الظاهري (غرس مائدين خليل) : زبدة كشف الممالك وبين الطرق والممالك ، بول رافيس باريس ١٨٩٤
- ٥ - ابن القلائس (أبو يعلى حمزة) : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨
- ٦ - ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج ٣ نشره الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٠
- ٧ - أبو النقاد (إسماعيل بن علي عماد الدين) : المختصر في أخبار البشر ، القسطنطينية ١٢٨٦ هـ
- ٨ - أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل) : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين طبعة مصر ١٢٨٨ هـ
- ٩ - الأملطري (أبو اسحق فارس) : مسائل الممالك ، لندن ١٩٢٧
- ١٠ - الاصمغاني (عماد الدين) : كتاب الفتح القس في الفتح القس ، نشره كارلو دي لاندبيرج تحت عنوان "Conquête de la Syrie et de la Palestine" لندن ١٨٨٨
- ١١ - البلاذري (أحمد يحيى) : فتوح البلدان ، النعم الأول نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٩
- ١٢ - المقدسي (شمس الدين أبي عبد الله محمد) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، لندن ١٩٠٦
- ١٣ - البكري (أحمد أبي يعقوب بن جعفر) : كذب البلدان ، لندن ١٨٩١
- ١٤ - صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، نشره الأب لويس شيخو ، بيروت ١٨٩٨
- ١٥ - ناصر خسرو علوي : سفرنامه ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥

٢ - المراجع العربية الحديثة

- ١٦ - الباي (أنشيج كامل) : من آثار التاريخ الطرابلسي ، حديث بمجلة الارشاد الاجتماعي العدد ٢٧ ، طرابلس ١٩٦٢

- ١٧ - ابراهيم أحمد العمودي (دكتور) : العولة الإسلامية وأمبراطورية الروم ، القاهرة ١٩٥٨
- ١٨ - البستاني : دائرة المعارف البستاني ، مادة طرابلس .
- ١٩ - حسن أحمد محمود (دكتور) : مصر في عصر الطولونيين ، القاهرة ١٩٦٠
- ٢٠ - دراج (دكتور أحمد) : جيم سلطان و دبلوماسية اندولية ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ١٩٥٩
- ٢١ - سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : بعض التأثيرات الأندلسية في النهضة المصرية الإسلامية ، المجلة العدد ١٢ ديسمبر ١٩٥٧
- ٢٢ - ... : المأذون المصرية ، نظرة عامة من أصلها وتطورها ، القاهرة ١٩٥٩
- ٢٣ - ... : تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦١
- ٢٤ - الشياح (دكتور جمال الدين) : وحدة مصر وسورية في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٥٨
- ٢٥ - عاشور (دكتور سعيد عبد الفتاح) : قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧
- ٢٦ - ... : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩
- ٢٧ - فيليب حتى (دكتور) لبنان في التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريجة والدكتور فتولا زيادة ، بيروت ١٩٥٩
- ٢٨ - ... : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين في جزأين ، ترجمة الدكتور جورج سداد ، بيروت ١٩٥٨
- ٢٩ - كرد علي (الأستاذ محمد) : خطط الشام ، ج ٦ ، دمشق ١٩٢٨

٣ - المراجع الأوروبية القديمة والحديثة

- ٣٠ - بنيامين انتفيل : رحلة بنيامين الطويل ١١٩٠ - ١١٧٣ ، نشرها أجناتيو جنتاث مدريد ١٩١٨
30. *Viajes de Benjamín de Tudela*, Traducidos por Ignacio González L. Liubera, Madrid, 1918.
- ٣١ - بيل (ف) : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة طرابلس
31. *Buhl (fr.) : Encyclopædia of Islam, Art, Traditions.*
- ٣٢ - كنلي (بروس) : طرابلس لبنان ، بيروت ١٩٦١
32. *Conde (Bruce) : Tripoli of Lebanon, Beirut, 1961*
- ٣٣ - هايد : تاريخ بحارة الشرق ، ج ٢ ، ليدزج ١٨٨٥
33. *Heyd : Histoire du Commerce du Levant, t. II, Leipzig 1885.*

٣٤ - تقرير لجنة اليونسكو الى لبنان : عضوية الأستاذة بول كويار ، والأمير موريس شهاب وأرماني ديلون ، اليونسكو ، باريس ١٩٥٤

34. *Rapport de la mission envoyée par l'Unesco en 1953 au Liban*, membres : Mrs. Paul Collart, Emir Maurice Chehab et Armando Dillon, publié sous le titre; Liban, aménagement de la ville de Tripoli et du site de Baalbek, Paris 1954.

٣٥ - سوفاجيه (جان) : ملاحظات عن الدفاع عن ميناء طرابلس في مجلة متحف بيروت ، باريس ١٩٣٨

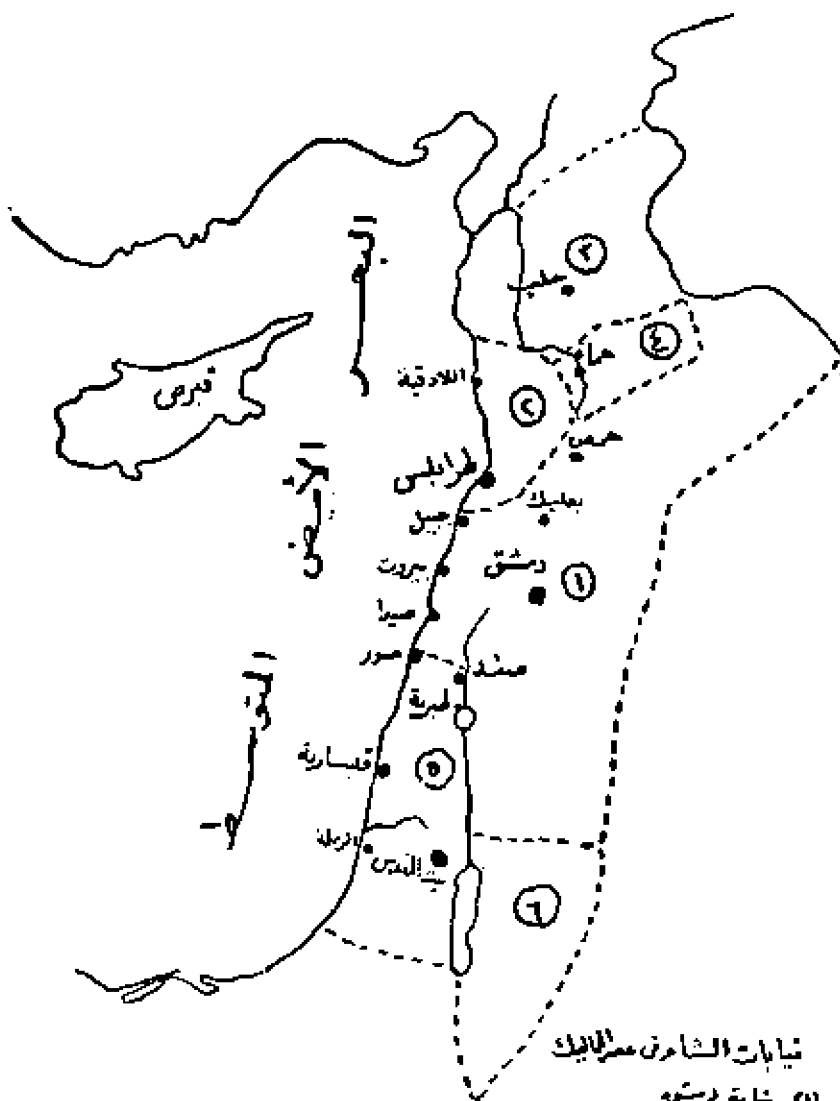
35. *Sauvaget (J.) : Notes sur les defenses de la marine de Tripoli*, dans, Bulletin de la musée de Beyrouth, Paris, Décembre 1938

٣٦ - سوبرنهام (موريتز) : النقوش العربية في سورية الحالية ، في معجم الكتابات العربية ج ٢٥ ، ١٩٠٩

36. *Sobornheim (Moritz) : Corpus Inscriptionum Arabicarum*, t. XXV, 1909.

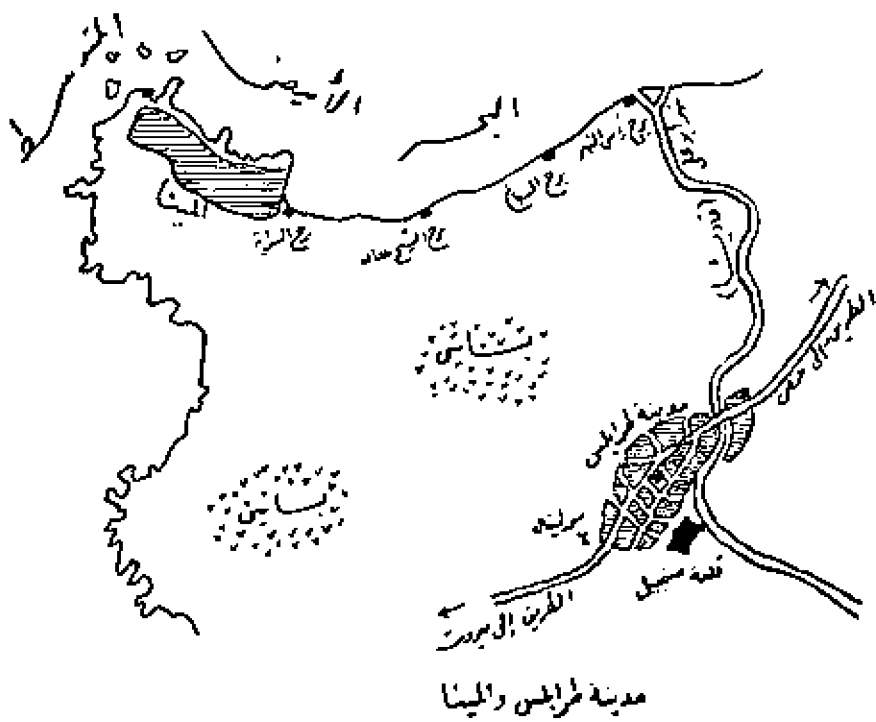
٣٧ - فان برثم (ماكس) ، وفاتير (أدمون) : رحلة الى سورية نشرت في مذكرات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، عدد ٣٧ ، القاهرة ١٩١٤

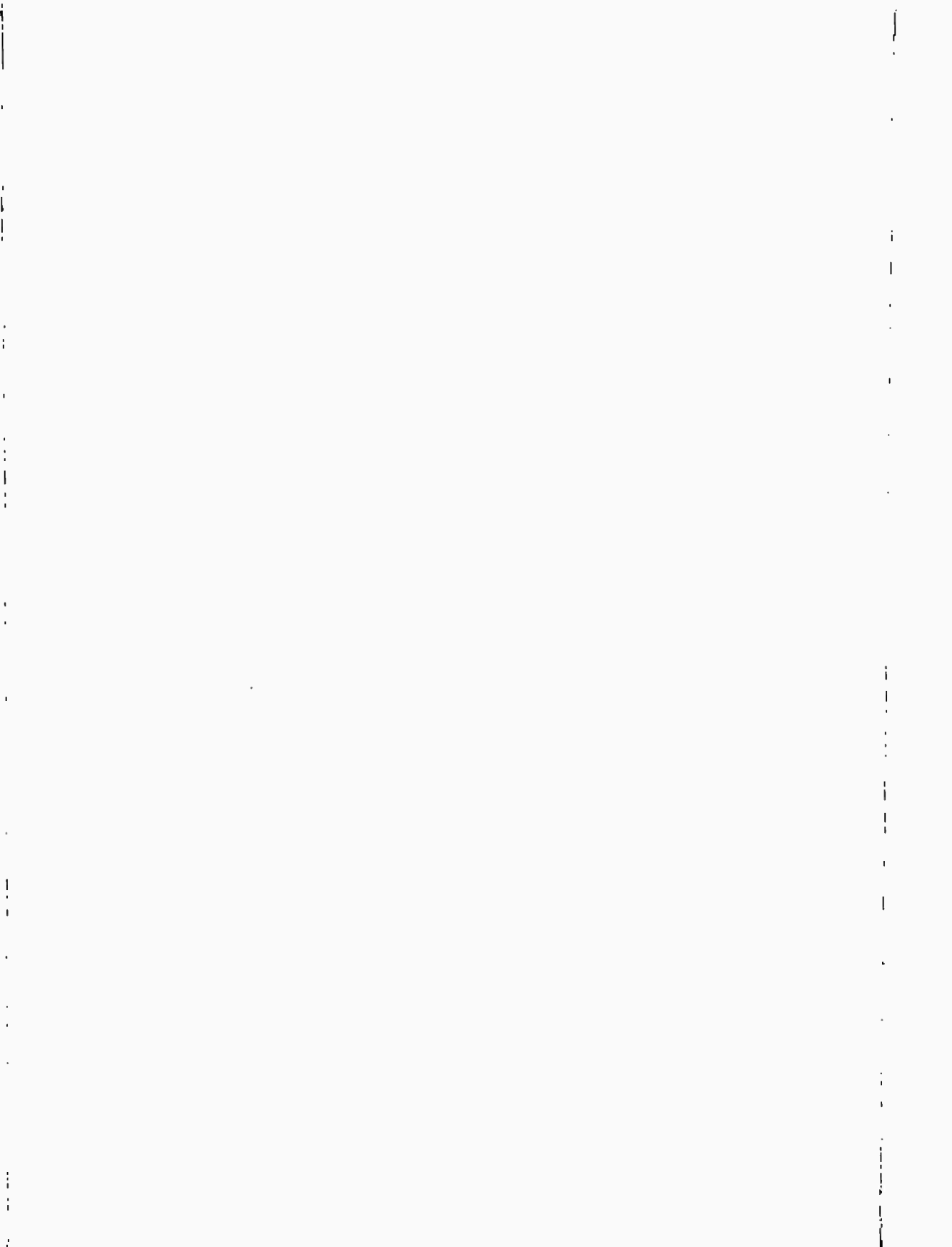
37. *Van Berchem (M.) & Fatto (E.) : Voyage en Syrie*, dans Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, t. 37 le Caire, 1914.



نقاط الشاطئ على الخريطة

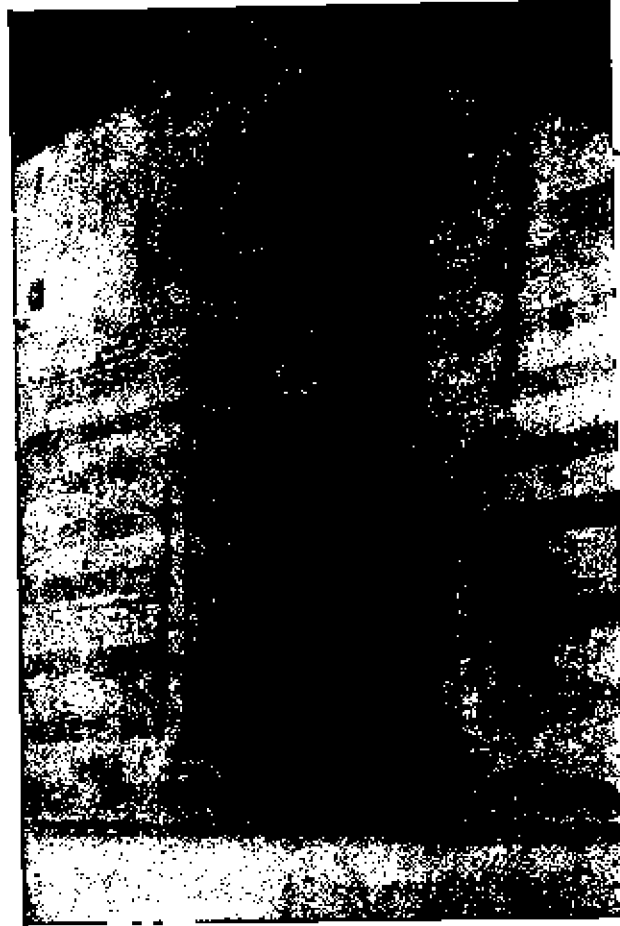
- (1) شاطئ دسوق
- (2) شاطئ طرابلس
- (3) شاطئ طبر
- (4) شاطئ حارة
- (5) شاطئ صيدا
- (6) شاطئ صور
- (7) شاطئ حيفا



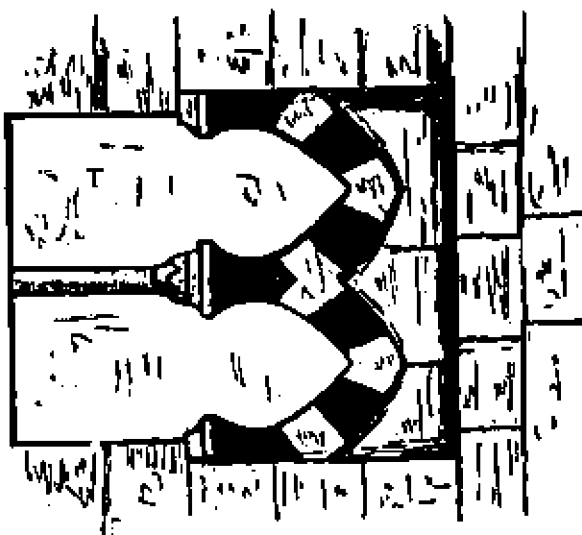




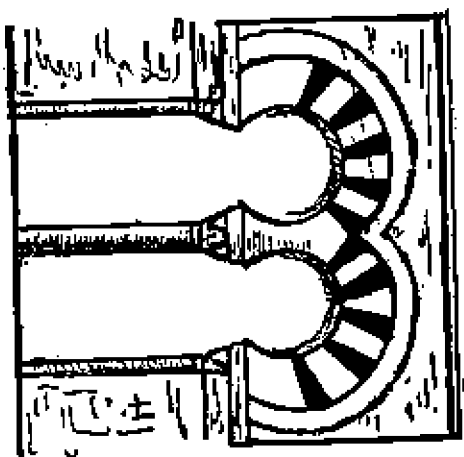
الجامع الكبير بطرابلس وترى المدينة في الجهة الشمالية



واجهة المدخل بالمدرسة القرطانية



نافذة مزودة بالصفحة
بالمدى الرباطية



نافذة مزودة بالصفحة بالمدى
بدرجات السطح المربع بغيره



نافذة بخامه المنزلة



مسجد حیدر بن عبد المکرمی



مئذنة المنصور قلاوون وبجوارها مئذنة الناصر محمد والنحاسين



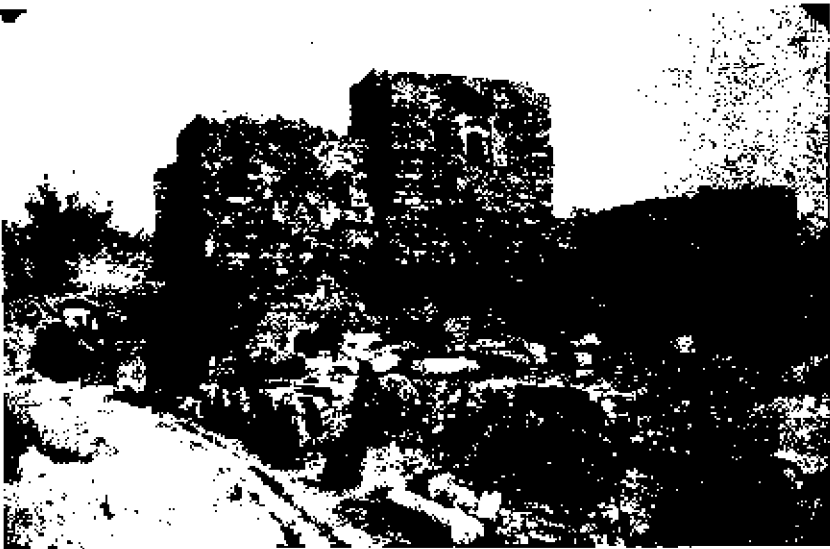
أثمة صانجيل طرابلس



اشبيلية : برج الذهب (من عصر المرحدين)
وترى المقود المتجاوزة المنكسرة والمقود المفصصة



منظر عام للقلعة صنجيل



تلمة جیل



برج السباع : واجهة المنزل



خان الخياطين